موقف المسلم من الفتن

في ضوء الكتاب والسنة النبوية

لفضيلة الإمام الأكبر
أ.د / محمد سيد طنطاوى
شيـــخ الأزهـــــر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحـمـد لله رب العـالمين، والعـاقـبـة للمـتـقـين، ولا عـدوان إلا عـلـى الظالمين، والصـلاة والسـلام على سيدنا وشفيعنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد: فمنذ بضعة شهور تلقيت دعوة كريمة من «جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة».

وذلك للمشاركة في ندوة دينية عقدت بالمدينة المنورة في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٤٢٤هـ الموافق للسابع والعشرين من شهر مايو سنة ٢٠٠٣م.

وكان موضوع الندوة:

«موقف المسلم من الفتن في ضوء الكتاب والسنة النبوية»

وقد انشرح صدري للمشاركة بالحديث عن هذا الموضوع، لشعوري بأنه موضوع جاء اختياره في الوقت المناسب.

وحديثي عن هذا الموضوع يتناول: كلمة «الفتنة» ووجوه استعمالاتها في القرآن الكريم.

كما يتناول حديث السنة النبوية عن هذه الكلمة، وعن وقوعها، وأنواعها، والتحذير منها.

كما يتناول وجوب الوقوف إلى جانب أهل الحق حتى يتم لهم الانتصار، ووجوب الوقوف في وجه أهل الباطل حتى يحل بهم الاندحار.

وإني لأكرر شكري للقائمين على جائزة «نايف بن عبد العزيز» على هذه الدعوة الكريمة، وأدعو الله -تعالى- إن يجعل أقوالنا خالصة لوجهه الكريم، ونافعة لنا يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د/محمد سيد طنطاوي

شيخ الأزهر

حديث القرآن الكريم عن كلمة الفتنة وعن وجوه استعمالاتها

إن الذي يقرأ القرآن الكريم يجد أن كلمة «الفتنة» قد وردت في ثلاثين موضعاً من كتاب الله -تعالى- وأن الألفاظ التي هي من مادة هذه الكلمة ومن مشتقاتها كقوله -تعالى- «فتنا» و«فتناك» و«فتناه»... قد وردت في أكثر من عشرين موضعا من القرآن الكريم.

وكلمة «الفتنة» مأخوذة لغة من الفتن، والفتن كما يقول الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه «المفردات في غريب القرآن»[1] إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته.

والذي يتدبر القرآن الكريم يراه قد استعمل كلمة «الفتنة» والكلمات التي هي من مادتها ومشتقاتها في معان شتى، وليس في معنى واحد.

فتارة يستعمل القرآن الكريم كلمة «الفتنة» بمعنى الابتلاء والاختبار والامتحان، وهذا الاستعمال له صور متعددة، منها قوله -تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٣٤ - ٣٥).

قال الإمام القرطبي: قوله -تعالى-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾.

«أي: وما جعلنا لبشر من قبلكم دوام البقاء في الدنيا، وقد نزلت هذه الآية حين قال المشركون: نتربص بمحمد ﷺ ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان، فقال الله -تعالى-: قد مات الأنبياء من قبلك يا محمد، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك».

والمعنى: وما جعلنا -أيها الرسول الكريم- لبشر من قبلك كائناً من كان الخلود في هذه الحياة، وأنت -يا محمد- إن مت فهم أيضاً سيموتون في الوقت الذي حدده

---

١ - ص ٣٧١.

الله -تعالى- لانقضاء عمرك وأعمارهم، ومادام الأمر كذلك: فذرهم في جهالتهم يعمهون، ولا تلتفت إلى شماتتهم فيك، أو إلى تربصهم بك، فإنك ميت وإنهم ميتون: ﴿ ... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(سورة الأنبياء الآية: ٨٨).

ورحم الله الإمام الشافعي حيث يقول:

تمنَّى أناس أن أموت، وإن أمت

فتلك سبيل لستُ فيها بأوحدِ

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى

تهيأ لأخرى مثلها، وكأن قد

ثم أكد -سبحانه- عدم خلود بشر في هذه الحياة فقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ... ﴾(سورة الأنبياء الآية: ٣٥).

أي: كل نفس أوجدها الله -تعالى- في هذه الحياة، ستذوق مرارة نزول الموت بها، ومفارقة روحها لجسدها.

وقوله -تعالى-: ﴿ ...وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

بيان لِسنَّة من سننه -تعالى- في معاملة عباده.

ولفظ «نبلوكم»: مأخوذ من البلو بمعنى الاختبار والامتحان. يقال: فلان بلاه الله -تعالى- بخير أو بشر، بمعنى امتحنه واختبره.

أي: كل نفس سينزل بها الموت، ونختبركم أيها الناس في هذه الحياة بألوان من النعم، وبألوان من المحن، نرى أتشكرون عند النعمة، وتصبرون عند المحنة، أم يكون حالكم ليس كذلك؟

وفي جميع الأحوال، فإن مرجعكم جميعا إلينا لا شك في ذلك، وسنجازيكم بما تستحقون من ثواب على شكركم وصبركم، وسنجازي غير الشاكرين وغير الصابرين بما يستحقون من عقاب، ولا يظلم ربك أحداً.

قال بعض العلماء: «والابتلاء بالشر مفهوم أمره، ليتكشف مدى احتمال المبتلى،

ومدى صبره على الضر، ومدى ثقته في ربه، ومدى رجائه في رحمته» فأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة إلى بيان.

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة، فكثيرون يصمدون أمام الابتلاء بالشر، ولكن القلة القلية هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، وقليلون هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة.

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل، وقليلون هم الذين يصبرون على الثراء ومغرياته وما يثيره من أطماع.

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح، وقليلون هم الذين يصبرون على الدعة، ولا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال.

إن الابتلاء بالشر قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة، ويجند الأعصاب لاستقبال الشدة، أما الرخاء فقد يرخي الأعصاب ويفقدها المقاومة، إلا من عصمه الله.

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله -سبحانه-: ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ (سورة الأعراف الآية: ١٦٨).

أي: وفرقنا هؤلاء القوم في الأرض، ومزقناهم شر ممزق، بسبب عصيانهم لأمرنا، وخروجهم عن طاعتنا، وصيَّرناهم فرقاً متقطعة الأوصال...

فكان منهم الصالحون الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فحسنت أحوالهم، واستقامت طريقتهم، وطابت عاقبتهم...

وكان منهم الطالحون الذين انحطت رتبتهم عن أولئك الصالحين، فكانت عاقبتهم التعاسة والخسران.

وقوله -سبحانه-: ﴿ ... **وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾.

أي: واختبرناهم وامتحناهم، تارة بالنعم الكثيرة كالصحة والرخاء وسعة الأرزاق، وتارة بالمصائب المتنوعة كالجدب والأمراض والشدائد، لعلهم بسبب ما أصابهم من سراء تارة ومن ضراء تارة أخرى، يرجعون إلى إخلاص العبادة لنا، وإلى التمسك بالعمل الصالح، ويتركون ما نهوا عنه من أقوال سيئة، ومن أفعال قبيحة، ومن سلوك ذميم.

وتارة نجد القرآن الكريم في آيات كثيرة يتحدث عن الابتلاء والامتحان بالمصائب والآلام، ومن هذه الآيات القرآنية قوله -تعالى-: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ*وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة العنكبوت الآية: ٢ - ٣).

والاستفهام في قوله -سبحانه-: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ ..﴾ للإنكار ولفظ «حسب» من الحسبان بمعنى الظن.

ولفظ «يُفتنون» من الفَتْن بمعنى الاختبار والامتحان والابتلاء، يقال: فتنت الذهب بالنار، إذا أدخلته فيها لتعرف الجيد منه من الخبيث.

والمعنى: أَظَنَّ الناس أن يتركوا دون ابتلاء بالمصائب والآلام، لأنهم نطقوا بكلمة الإسلام؟

إن كانوا قد ظنوا ذلك فظنهم هذا ظن غير صحيح، لأن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال باللسان فقط، وإنما هو عقيدة تكلف صاحبها الكثير من الأذى، ومن فقد الأموال والأنفس والثمرات، بسبب عدوان الفاسقين عليهم، وبذلك يتميز أهل الحق من أهل الباطل...

وقوله -سبحانه-: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾. مؤكد لما قبله من أن ظن الناس أن يتركوا دون أن يصابوا بأذى بسبب إيمانهم، هو ظن غير صحيح؛ لأن سنة الله قد اقتضت أن يدفع بعضهم ببعض، وأن يجعل أهل الخير يصارعون أهل الشر، إلا أن العاقبة في النهاية للأخيار.

والمقصود بقوله -تعالى-: ﴿... فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ إظهار علمه عز وجل للناس، ومجازاتهم على أعمالهم.

والمعنى: ولقد اختبرنا يا محمد بالضراء والآلام أقواماً من المؤمنين السابقين، لكي نظهر في عالم الواقع حال الذين صدقوا في إيمانهم، وحال الكاذبين، حتى ينكشف للناس ما هو غائب عن علمهم، وقد اقتضت عدالتنا أن نجازي الذين أساؤا بما عملوا، ونجازي الذين أحسنوا بالحسنى.

ورحم الله الإمام ابن جرير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: قوله -تعالى-: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا...﴾

أي: فليعلمن الله الذين صدقوا منهم في قولهم آمنا، وليعلمن الكاذبين منهم في قولهم ذلك، والله عالم بذلك منهم، قبل الاختبار، وفي حال الاختبار، وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: وليظهرن الله صدق الصادق منهم في قوله آمنا بالله، من كذب الكاذب منهم.

والخلاصة: أن المقصود من الآيتين: تنبيه الناس في كل زمان ومكان إلى أن ظن بعض الناس بأن الإيمان يتعارض مع الابتلاء بالبأساء والضراء ظن فاسد، وإلى أن هذا الابتلاء سنة ماضية في السابقين وفي اللاحقين إلى يوم الدين.

وتارة نجد القرآن الكريم يبين لنا في آيات متعددة أن الابتلاء والاختبار كثير ما يأتى عن طريق ما ساقه الله -تعالى- من خيرات وفيرة، على رأسها نعمة الأموال، ونعمة الأولاد، كما قال -سبحانه-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٢٨).

أي: واعلموا أيها المؤمنون أنما أموالكم وأولادكم «فتنة» أي: امتحان واختبار لكم من الله -تعالى- ليتبين قوي الإيمان من ضعيفه.

أما قوي الإيمان فلا يشغله ماله وولده عن طاعة الله -تعالى- وأما ضعيف الإيمان فيشغله ذلك عن طاعة الله، ويعيش حياته عبدا لأمواله ومطيعاً لأولاده ولمطالبهم حتى ولو كانت هذه الطاعة متنافية مع الحق والفضائل.

وقوله -تعالى-: ﴿... وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ختام للآية قصد به ترغيب المؤمنين في طاعة الله، بعد تحذيرهم من فتنة الأموال والأولاد.

وشبيه بهذه الآية قوله -تعالى-: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة طه الآية: ١٣١).

أي: داوم -أيها الرسول الكريم- أنت وأتباعك على طاعة الله، ولا تنظر إلى ما أعطيناه لأصناف من الناس من جاه وأموال وأولاد، فإن ذلك كله زينة زائلة، وقد أعطيناهم ذلك «لنفتنهم» فيه أي: لنمتحنهم ونختبرهم أيشكروننا على هذه أم يجحدون هذه النعم، واعلم أن رزق ربك وثوابه خير لك مما متعناه لغيرك من خيرات...

وبذلك نرى أن لفظ «الفتنة» وما هو من مادته قد يستعمله القرآن في الاختبار والامتحان، وتارة عن طريق الخير والشر، وتارة عن طريق المصائب والآلام، وتارة عن طريق النعم والإحسان.

كذلك من الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة «الفتنة» وما هو من مادتها بمعنى الابتلاء والامتحان والاختبار، ليتبين قوي الإيمان من ضعيفه...

من هذه الآيات قوله -سبحانه-: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (سورة ص الآيات: ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٤).

والاستفهام في قوله -سبحانه-: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ...﴾ للتعجب والتشويق لما يقال بعده، لكونه أمراً غريباً تتطلع إلى معرفته النفس الإنسانية.

والمحراب: اسم للمكان الذي كان داود -عليه السلام- يجلس فيه للعبادة ولذكر خالقه -عز وجل-.

والمعنى: وهل وصل إلى علمك -أيها الرسول الكريم- ذلك الخبر العجيب، ألا وهو خبر أولئك الخصوم الذين تسلقوا على داود غرفته، وقت أن كان جالساً لعبادة ربه دون إذن منه، ودون علم منه بقدومهم...

إن كان هذا النبأ العجيب لم يصل إلى علمك، فها نحن نقصه عليك...

ثم بيّن -سبحانه- ما فعله الخصوم بعد أن تسلقوا على داود -عليه السلام- غرفته فقال: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ﴾.

أي: أن هؤلاء الخصوم بعد أن تسوروا على داود -عليه السلام- المحراب اعتراه الخوف منهم؛ لأنهم أتوه عن غير الطريق المعتاد، وفي غير الوقت الذي حدده للقاء الناس وللحكم بينهم، ومن شأن النفس البشرية أن تفزع عندما تفاجأ بحالة كهذه الحالة.

ثم بين -سبحانه- ما قاله أولئك الخصوم لداود -عليه السلام- عندما شاهدوا عليه أمارات الوجل والفزع فقال: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

أي: قالوا لداود -عليه السلام- لا تخف، نحن خصمان ظلم بعضنا بعضاً، فاحكم أنت بيننا بالحكم العدل «ولا تشطط» أي: ولا تتجاوزه إلى غيره، وأرشدنا إلى الطريق الوسط، وهو طريق الحق والعدل.

ثم أخذا في شرح قضيتهما فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

أي قال أحدهما لداود -عليه السلام-: إن هذا الإنسان الذي معي هو أخي في النسب أو في الدين أو في الإنسانية، وهو يملك تسعاً وتسعين نعجة من أنثى الضأن، وأنا لا أملك سوى نعجة واحدة، فقال لي: «أكفلنيها» ملكني إياها، وتنازل لي عنها، بحيث تكون تحت كفالتي وملكيتي كبقية النعاج التي في حوزتي، ليتم عددها مائة نعجة.

«وعزني في الخطاب» أي: وغلبني في مخاطبته لي، لأنه أقوى مني جسماً، وأفصح لساناً، وأغنى مالاً.

وأمـام هذه القـضيـة الواضحـة المعـالم، وأمـام سكوت الأخ المدَّعَى عليـه أمـام أخيـه المدَّعِي، لم يلبث أن قـال داود -عليه السلام- فـي حكمه: ﴿ ... قَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ... ﴾

أي: والله إن كـان مـا تقـوله حقـاً أيهـا المدعي فـإن أخـاك الذي يملك تسـعـاً وتسـعين نعجة، يكون في هذه الحالة قد ظلمك، بسبب طلبه منك أن تتنازل له عن نعجتك لكي يضعها ضمن نعاجه الكثيرة.

ثم أراد داود -عليـه السـلام- أن يخـفف على صـاحب النعـجـة الواحـدة المسـألة، وأن يهون مـا نزل به من ظلم ارتكبـه أخوه الغني فقـال له برفق: ﴿ .. وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ.. ﴾

أي: قـال داود -عليـه السـلام- الذي آتاه الله الحكمـة وفصل الخطاب، قـال لصـاحب النعجـة الواحدة على سبيـل التسلية له: يا فـلان لا تجـزع فإن كثيـراً من النـاس «الخلطاء» أي: الشركاء في الأموال، ليعتدي بعضهم على بعض، ويطمع بعضهم في أموال غيره، إلا الذين آمنوا بـالله -تعـالى- حق الإيمـان، والتـزموا بالأعـمـال الصـالحـة، فإنهم لا يـفعلون ذلك، لصفاء نفوسهم، وطهارة قلوبهم،وهؤلاء المؤمنون الصادقون قليل عددهم...

فقوله -سبحانه-: ﴿ ... وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ... ﴾

بيان لقلة عـدد المؤمنين الصـالحين الذين يعـدلون في أحكامهم،والذين يحـرصون على إعطاء كل ذي حق حقه.

ثم وضَّح -سـبـحـانـه- مـا خطر بقـلب عـبـده داود -عليـه السـلام- بعد أن دخل عليـه الخـصـمـان بتلك الطريقـة الـغـريبـة، وبعد أن حكم بينـهـمـا بهذا الحكم السـابق فقـال: ﴿ .. وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (سورة ص الآيات: ٢٤ - ٢٥).

ولفظ «فتناه» هنا بمعنى اختبرناه وامتحناه وابتليناه بأحداث لم يكن يتوقعها.

والمعنى: وظن داود -عليـه السـلام- أن دخـول هـذين الخـصـمين عليـه بهـذه الطـريقـة

العجيبة، إنما هو لأجل الاعتداء عليه، وأن ذلك لون من ابتلاء الله -تعالى- له، وامتحانه لقوة إيمانه، ولكن لما لم يتحقق هذا وإنما الذي تحقق هو حكمه بينهما بالعدل، استغفر ربه من ذلك الظن، وخر ساجداً لخالقه، ورجع إليه -تعالى- بالتوبة الصادقة، فغفرنا له ذلك الظن الذي استغفر منه، وإن له عندنا «لزلفى» لقربى ومكانة سامية «وحسن مآب» أي: وحسن مرجع في الآخرة وهو الجنة. وبذلك نرى أن قوله -تعالى-: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾

أي: امتحناه واختبرناه بهذه الأحداث، ليتعلم الناس منه الأقوال الطيبة، والأحكام العادلة، والثبات أمام أحداث الحياة.

كذلك نجد أن هذه المادة المأخوذة من كلمة «الفتن» أو «الفتنة»، قد وردت بمعنى الابتلاء والامتحان في قوله -سبحانه-:﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾

أي: والله لقد اختبرنا وامتحنا وابتلينا نبينا سليمان -عليه السلام- بألوان من الأمور التي فيها ما فيها من العبر والعظات.

وأظهر ما قيل في فتنته -عليه السلام- أنه قال: لأطوفن الليلة على نسائي، وتأتي كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق ولد، وهذا معنى قوله -سبحانه-: ﴿أَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾

أي: وألقينا على كرسيه غلاما ناقص الخلقة.

وتذكر سليمان -عليه السلام- بعد ذلك أن ما حدث له كان بسبب نسيانه أن يقول إن شاء الله، فتاب إلى خالقه وأناب وقال: «رب اغفر لي» ما حدث مني من نسيان ومن زلات «وهب لي ملكاً «عظيماً» لا ينبغي لأحد من بعدى أي: لا يحصل لأحد من بعدى من الناس «إنك أنت الوهاب».

فأجاب الله -تعالى- دعاءه، ومنحه هذا الملك العظيم الذي لم يمنحه لأحد من بعده.

فقوله -سبحانه-: ﴿لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ...﴾

أي: امتحناه وابتليناه بأن عاقبناه بعدم تحقيق آماله في أن تأتي كل واحدة من نسائه بفارس يجاهد في سبيل الله، لأنه نسي أن يقول إن شاء الله، ولكنه بعد أن تاب وأناب وقال رب اغفر لي، عفونا عنه، وأجبنا دعاءه، وأعطيناه ملكاً عظيماً.

ومن الدروس التي أخذها العلماء من هذه القصة، أن العقلاء دائماً يقدمون مشيئة الله -تعالى- في كل أقوالهم وأعمالهم ومقاصدهم في الحياة...

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (سورة الكهف الآيات: ٢٣ - ٢٤).

وأيضاً من الآيات القرآنية التي جاءت فيها كلمة «الفتنة» بمعنى الامتحان والاختبار والابتلاء، قوله -تعالى-.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾

(سورة البقرة الآية: ١٠٢).

والضمير في قوله -سبحانه-: ﴿وَاتَّبَعُوا...﴾ يعود إلى فريق من أحبار اليهود الذين حاربوا الدعوة الإسلامية، واتبعوا الخرافات والأكاذيب التي كانت الشياطين تتقولها على عهد ملك سليمان، ومن ذلك قولهم: إن ملكه -عليه السلام- قد قام على السحر...

وقد نفى الله عزل وجل عن نبيه سليمان -عليه السلام- هذه التهم الباطلة فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾

والمعنى: لقد كذب أولئك الجاحدون للحق، والذين نسبوا السحر والكفر على نبى من أنبياء الله تعالى، والحق أن نبي الله تعالى سليمان -عليه السلام- ما بدل دينه الذي يقوم على إخلاص العبادة لله الواحد القهار، ولكن الشياطين هم الذين كفروا حين تعلموا السحر، وعلموه لغيرهم بقصد إضلالهم، وصرفه عن الحق إلى الباطل، وعن الخير إلى الشر، وعن عبادة الله -تعالى- وحده إلى عبادة غيره...

وقد اتبع بعض أحبار اليهود هؤلاء الشياطين في تعلم السحر وفي تعليمه لغيرهم لإفساد عقائدهم، وكذلك اتبعوا السحر الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت بأرض «بابل» في العراق.

ثم بيّن -سبحانه- ما كان الملكان ينصحان به من يريد تعلم السحر منهما فقال: ﴿ ... وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ... ﴾

أي: أن الملكين كانا لا يعلمان أحداً السحر إلا وينصحانه بقولهما: إن ما نعلمك إياه من فنون السحر الغرض منه الابتلاء والاختبار والامتحان، ليتميز المطيع من العاصي، والصالح من الطالح، والمحسن من المسيء، فمن عمل بالسحر لإفساد العقائد فقد خسر وضل واستحق أشد ألوان العقاب، ومن تركه فهو على هدى ونور من الله عز وجل.

فالذي أنزل على الملكين هو وصف السحر وماهيته وكيفيته وطريقة الاحتيال به، لكي يجتنبه الناس بعد معرفته، على حد قول الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لِتَوَقِّيهِ

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فالمقصود بلفظ «الفتنة» هنا: الاختبار والامتحان والابتلاء، ليعرف قوي الإيمان من ضعيفه، وصدق الله إذ يقول: ﴿لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة العنكبوت الآية: ٣).

وقد تأتي كلمة «الفتنة» في القرآن الكريم، بمعنى بلبلة الأفكار، واضطراب الأفهام، وإثارة الخلافات والمنازعات بين الناس بطريقة قد تؤدي إلى نشر العداوة والبغضاء فيما بينهم.

ومن الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ «الفتنة» بهذا المعنى قوله -تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٧).

وقوله -تعالى-: ﴿ ...مُّحْكَمَاتٌ... ﴾

من الإحكام بكسر الهمزة وهذه المادة تستعمل في اللغة لمعان متعددة، ترجع جميعا إلى شيء واحد هو المنع.

يقال: أحكم فلان الشيء، إذا أتقنه ومنعه عن الفساد، ويقال: فلان حكم نفسه إذا منعها من كل ما لا يليق، وقوله -سبحانه-: ﴿ ...هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ... ﴾.

أي: أصله الذي فيه عماد الدين وفرائضه وحدوده وما يحتاج إليه الناس في دنياهم وآخرتهم. وأم كل شيء: أصله وعماده.

قال الإمام ابن جرير -رحمه الله-: «والعرب تُسَمَّى الأمر الجامع لمعظم الشيء أماً له. فيسمَّون راية القوم التي تجمعهم في العساكر أمهم. ويسمون المدبر لمعظم أمر البلدة والقرية أمَّها».

ولقد جاء في القرآن الكريم ما يشير إلى أنه كله محكم، كما في قوله -سبحانه-: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ (سورة هود الآية: ١).

وجاء فيه ما يشير إلى أنه كله متشابه، كما في قوله -سبحانه-: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ (سورة الزمر الآية: ٢٣).

وجاء فيه ما يدل على أن بعض آياته محكم، وبعضها متشابه، كالآية التي معنا.

ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة، لأن معنى إحكامه كله: أنه متقن يمتنع أن يتطرق إليه خلل أو اضطراب.

ومعنى كونه متشابهاً: أنه يشبه بعضه بعضاً في بلاغته وفي فصاحته وفي إعجازه.

ومعنى أن بعضه محكم وبعضه متشابه، أي: أن بعض آياته واضحة المعنى ولا يحتمل تفسيرها سوى وجه واحد، كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (سورة النساء الآية: ١٧١).

وكقوله -سبحانه-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ (سورة الفتح الآية: ٢٩).

ومعنى أن بعض آياته متشابه، أي: أنها تحتمل وجوهاً من التفسير، كقوله -سبحانه- في شأن سيدنا إبراهيم -عليه السلام-: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (سورة الصافات الآية: ٩٣).

فإن لفظ «باليمين» هنا يحتمل أن سيدنا إبراهيم أسرع إلى الأصنام فضربها وحطمها بيده اليمنى، ويحتمل أن المراد أن سيدنا إبراهيم أسرع إلى الأصنام فضربها وحطمها بقوة..

والمعنى: الله عز وجل هو الذي أنزل عليكم القرآن الكريم يا محمدأنزله مشتملاً على آيات محكمات واضحات المعنى، لا تحتمل سوى وجه واحد من وجوه التفسير والتأويل، وهذه الآيات هي أصل الكتاب الذي يرجع إليه عند الاشتباه، وهي التي يرد ما خالفه إليه...

ومشتملاً كذلك على آيات متشابهات تحتمل أكثر من معنى من وجوه التفسير، ولا يتعين المراد منها إلا بضمها إلى الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب.

ثم بيّن -سبحانه- موقف الضالين والمنافقين وأعداء الحق من القرآن الكريم فقال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾

ولفظ «الزيغ» معناه الميل والتباعد إلى جهة معينة، يقال: زاغت الشمس إذا مالت إلى جهة الغروب، ويقال: زاغ فلان عن الطريق، إذا مال عنه تباعد إلى طريق آخر..

وهذا اللفظ يستعمل في الميل عن حدود الاستقامة، وفي التباعد عن طريق الحق إلى غيره، ولذا مدح الله -تعالى- رسوله محمداً بقوله: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ (سورة النجم الآية: ١٧).

أي: ما مال بصره وما انحرف عما أذن الله -تعالى- له في رؤيته، وما تجاوزه إلى ما لم يؤذن له في رؤيته، بل كان بصره منصباً على ما أبيح له النظر إليه فقط.

وذم الله -تعالى- الذين يميلون إلى الباطل وينصرفون عن الحق فقال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (سورة الصف الآية: ٥).

أي: فلما انصرف هؤلاء القوم عن طريق الحق مع علمهم به، ومالوا إلى الباطل وداوموا على ذلك دون أن تتأثر قلوبهم بالنصائح والمواعظ، أمال الله -تعالى- قلوبهم عن قبول الهدى، لإيثارهم الباطل على الحق...

ولفظ «الابتغاء» معناه: الاجتهاد في الطلب. يقال: ابتغيت الشيء إذا طلبته بجد ونشاط.

ولفظ «التأويل» معناه: التفسير والتوضيح والبيان.

والمعنى: فأما الفاسقون الذين في قلوبهم انحراف عن طلب الحق وميل إلى الباطل، وانصراف عن الصراط المستقيم، فيتبعون المتشابه من آيات القرآن الكريم، ويتعلقون بذلك وحده، ويعكفون على الخوض فيه، ولا تتجه عقولهم إلى المحكم ليردوا المتشابه إليه، وإنما يلازمون الأخذ بالمتشابه كما يلازم التابع متبوعه، لأنه يوافق اعوجاج نفوسهم،وسوء نياتهم...

وقد وضح -سبحانه- أن إتباع هؤلاء الزائفين للمتشابه إنما يقصدون من ورائه أمرين:

أولهما: ابتغاء «الفتنة» أي: طلباً لفتنة المؤمنين في دينهم، وتشكيكهم في عقيدتهم، وإثارة الريب في قلوبهم بأوهام يلقونها حول المتشابه الذي جاء به القرآن، بأن يقولوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (سورة ق الآية: ٣).

وبأن يقولوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام الآية: ١٤٨).

وبأن يقولوا: كيف يكون نعيم الجنة؟ وما حقيقة الروح؟ ولماذا يعذبنا الله على أعمالنا مع أنه هو الخالق لكل شيء؟ وبأن يسألوا النبي ﷺ أسئلة لا يقصدون من ورائها معرفة الجواب الصحيح، وإنما يقصدون من ورائها إظهار النبي ﷺ بالعجز عن الإجابة على أسئلتهم...

إلى غير ذلك من إثارة الشبهات الزائفة التي يثيرها الذين في قلوبهم زيغ طلباً لتشكيك المؤمنين في دينهم.

فالمقصود بلفظ «الفتنة» في هذه الآية الكريمة: إثارة الشكوك حول الحق، وبلبلة الأفكار، واضطراب المفاهيم، وإشاعة كل ما يؤدى إلى التنازع والاختلاف.

وثانيهما: «ابتغاء تأويله»: أي: ويتعلقون بالمتشابه ويتبعونه طلباً لتفسير آيات القرآن تفسيراً بعيداً عن الحق والصواب، زاعمين أن تفسيرهم هذا هو الحق بعينه، لأنه يتفق مع أهوائهم وشهواتهم وميولهم الأثيمة، كأن يفسروا حادث الإسراء والمعراج بالنسبة للرسول ﷺ بأنه رؤيا في النوم ولا حقيقة لها في الواقع...

وفي تعليل الأتباع كما يقول الإمام الآلوسى -رحمه الله- «بابتغاء تأويله» دون نفس

تأويله، وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقيقة، إيذان بأنهم ليسوا من أهل التأويل أو التفسير في -عير ولا نفير ولا قبيل ولا دبير- وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلاً، لا أنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه.

وقد ذم النبي ﷺ هؤلاء الذين يتبعون ما تشابه من القرآن طلباً للفتنة وللتفسير السقيم وحذر منهم في أحاديث كثيرة، منها: ما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية، ثم قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم».

ثم بيّن -سبحانه- أن تأويل المتشابه من آيات القرآن الكريم مرده إلى الله -تعالى- وحده، وأن الراسخين في العلم يعلمون منه ما يوفقهم الله لمعرفته فقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٧).

ولفظ «الراسخون» مأخوذ من الرسوخ بمعنى الثبات والتمكن، ومنه قولهم: رسخ الإيمان في القلب، أي: ثبت واستقر وتمكن.

ولفظ «الألباب« جمع لب، ويطلق على العقل الخالص من الشوائب، النقي من كل ما لا يليق.

والمعنى: وما يعلم تفسير هذه الآيات المتشابهة إلا الله -تعالى- وحده، والراسخون في العلم، المتمكنون من فقههم، الثابتون على الحق، عندما يقرءون ما تشابه من آيات القرآن الكريم، يقولون: آمنا وصدقنا بأن هذا القرآن كله من عند الله -تعالى- ولا نشك في أن كلاً من الآيات المحكمة والمتشابهة من عند الله -تعالى- وحده، فهو الذي أنزلها على نبيه محمد ﷺ بمقتضى حكمته ومشيئته.

وما يدرك هذه لحقائق الدينية، ويعتبر بها، ويتذكر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام وآداب وهدايات وتشريعات، إلا أصحاب العقول السليمة، والأفكار المستنيرة، التي لا تتأثر بالأهواء والشهوات، ولا تركن إلى البدع الزائفة، والاتجاهات الزائغة.

كذلك من الآيات القرآنية التي كلمة «الفتنة» المقصود بها فيها: اضطراب الأحوال،

وبلبلة الأفكار، ونشر الإشاعات الكاذبة، قوله عز وجل: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (سورة التوبة الآية: ٤٧ – ٤٨).

وهاتان الآيتان تتحدثان ضمن عشرات الآيات عن المسالك الخبيثة التي سلكها المنافقون في غزوة «تبوك» التي وقعت في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة...

والمعنى: لو خرج هؤلاء المنافقون معكم أيها المؤمنون إلى غزوة «تبوك« ما زادوكم «إلا خبالاً» أي: إلا اضطراباً في الرأي، وفساداً في العمل،وضعفاً في القتال، لأن هذا هو شأن النفوس المريضة التي تكره لكم الخير، وتحب لكم الشر.

«ولأوضعوا خلالكم» أي: ولأسرعوا السير بينكم بالوشايات والنميمة والإشاعات الكاذبة.

وقوله –سبحانه–: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾

أي: يطلبون لكم كل شر، وفيكم أيها المؤمنون من يستمع إلى إشاعاتهم الكاذبة، ومن ينقل أسراركم إلى زعمائهم وإلى أعدائكم...

والله –تعالى– عليم علماً تاماً بأحوال هؤلاء المنافقين الظالمين، وسيعاقبهم بالعقاب المناسب لجرائمهم.

ثم ذكر –سبحانه– طرفاً من ماضيهم المظلم فقال: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾

أي: أن هؤلاء المنافقين لقد سلكوا معكم أيها المؤمنون كل قول خبيث، وكل فعل سيء، من قبل غزوة «تبوك» بدليل أنهم في غزوة «أحد« وفي غزوة «الخندق« أشاعوا الإشاعات الكاذبة لتفريق كلمتكم، ولإيقاع الهزيمة في صفوفكم.

وقوله –سبحانه–: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ بيان لتفننهم في وجوه الأذى للنبي ﷺ.

أي: ودبروا لك أيها الرسول الكريم المكايد، واستعملوا نهاية مكرهم في الإساءة إلى المؤمنين.

واستمروا على نشر الإشاعات الكاذبة في صفوفكم «حتى جاء الحق» وتحقق النصر

لكم «وظهر أمر الله» أي: دينه وشرعه «وهم كارهون» لذلك، لأنهم كانوا يتمنون لكم الهزيمة، ولكن الله خيب سعيهم.

فالمقصود بكلمة «الفتنة» في هاتين الآيتين الكريمتين: نشر الإشاعات الكاذبة في صفوف المسلمين، والإسراع في إثارة الشبهات التي تفرق الكلمة، وتشك في العقيدة، وتؤدى إلى الهزيمة.

وقد يأتى لفظ «الفتنة» بمعنى العذاب الدنيوي: كالأمراض، والقحط، والفقر واضطراب الأحوال، وتسلط الطغاة، وعدم الأمان، والشعور بعدم الاطمئنان... وغير ذلك من المحن والمصائب والآلام التي تنزل بالناس، بسبب شيوع المعاصي والمنكرات والرذائل والفواحش التي ينفر منها كل ذي عقل سليم، وكل صاحب خلق كريم يعرف معنى الطهارة والعفاف والشرف...

ومن الآيات القرآنية التي جاءت فيها كلمة «الفتنة» بهذا المعنى قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة الأنفال الآيات: ٢٤ - ٢٥ - ٢٦).

والمعنى: يا من آمنتم بالله حق الإيمان، امتثلوا امتثالاً تاماً، عن طواعية واختيار، وعن نشاط وإخلاص، إذا ما دعاكم الرسول إلى ما يصلح أحوالكم،ويرفع درجاتكم، من الأقوال لنافعة، والأعمال الحسنة، التي بالتمسك بها تحيون حياة طيبة، وتظفرون بالسعادتين الدنيوية والأخروية.

وقوله -سبحانه-: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

تحذير لهم من الغفلة عن ذكر الله -تعالى- وحض لهم على مواصلة الطاعة لخالقهم عز وجل .

وقوله -تعالى-: ﴿يَحُولُ﴾. من الحول بين الشيء وغيره، بمعنى الحجز والفصل بينهما.

يقال: حال الحاكم أو القاضي بين الخصم وخصمه، إذا فصل وحجز بينهما.

وللمفسرين في تفسير هذه الجملة الكريمة وهي قوله -تعالى-: ﴿﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. لهم أقوال متعددة أهمها قولان:

أولهما: ما ذهب إليه الإمام ابن جرير وهو أن معنى هذه الجملة: «واعلموا -أيها المؤمنون- أن الله -تعالى- أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك شيئاً من إيمان أو كفر، أو أن يعي به شيئاً، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته -عز وجل-... ويدخل في ذلك قول من قال: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان».

وقد أيد الإمام ابن كثير ما ذهب إليه شيخه الإمام ابن جرير رحمهما الله فقال: «وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في ذلك ومنها قوله ﷺ: «إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفها كيف يشاء» ثم قال ﷺ: «اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك»

وأما القول الثاني: فهو ما ذهب إليه الإمام الزمخشري: «من أن المراد بالحيلولة بين المرء وقلبه، أنه -سبحانه- يميت المرء فتفوته الفرصة التي هو واجدها، وهي التمكن من إخلاص القلب، ومعالجة أدوائه وعلله، ورده سليماً كما يريده الله، فاغتنموا هذه الفرصة، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله».

أو كما يقول الإمام الفخر الرازي بعبارة أوضح: «أن المراد أن الله -تعالى- يحول بين المرء وبين ما يتمناه ويريده بقلبه، فإن الأجل يحول دون الأمل، فكأنه قال: بادروا إلى الأعمال الصالحة ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقع طول البقاء، فإن ذلك غير موثوق به...».

ومع وجاهة القولين، إلا أننا نرى أن القول الثاني الذي سار عليه الإمامان الزمخشرى والفخر الرازي رحمهما الله أرجح، لأن الآية الكريمة جاءت لحض المؤمنين على سرعة الاستجابة للحق الذي دعاهم إليه الرسول ﷺ والذي باتباعه يحيون حياة

طيبة، وتذكيرهم بيوم الحساب، وما فيه من ثواب وعقاب، كما قال -سبحانه- في ختامها: ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾، وليست مسوقة لإثبات قدرة الله، وأنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء.

فالتفسير للآية الذي ذهب إليه الإمامان ابن جرير وابن كثير، هو تفسير وجيه في ذاته، إذ لا ينكر أحد أن الله -تعالى- هو مقلب القلوب ومالكها، ولكنه ليس مناسباً هنا مناسبة المعنى الذي ذكره الإمامان الزمخشرى والفخر الرازي، لأن الآية التي معنا، والآية التي بعدها، صريحتان في دعوة المؤمنين إلى الاستجابة للحق، قبل أن يفاجئهم الموت، وقبل أن تنزل بهم مصيبة لا تصيب الظالمين وحدهم، وإنما تصيب الجميع...

فيكون المعنى الإجمالي للآية الكريمة، استجيبوا أيها المؤمنون بعزيمة صادقة، وبسرعة فائقة، لما يأمركم به رسولكم ﷺ ولما يسعدكم في دنياكم وآخرتكم، من أقوال طيبة، ومن أعمال صالحة، واعملوا علماً تاماً، أن الله -تعالى- يحجز ويفصل إذا شاء بين الإنسان وبين ما يتمناه قلبه من زينة الحياة الدنيا، فكم من إنسان عنده آمال عريضة بأنه سيفعل كذا وكذا غداً أو في المستقبل، وسينال منصب كذا، وسيحصل على ما يتمناه من كذا وكذا... ثم يحول الموت المفاجئ بينه وبين ما يتمناه من مطالب وحاجات...

وما دام الأمر كذلك فبادروا إلى اغتنام الأعمال الصالحة من قبل أن يفاجئكم الموت.

فأنت ترى أن الآية الكريمة، قد جمعت بين الترغيب في العمل الصالح بسرعة ونشاط، وبين الترهيب من التكاسل والغفلة عن طاعة الله.

ثم جاءت الآية الثانية لتؤكد ما اشتملت عليه سابقتها، فحذرت من التراخى في عمل الخيرات، ومن التكاسل في محاربة المنكرات، لأن ذلك سيؤدى إلى فتنة في الأرض والى فساد كبير، فقال -تعالى-:

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

والمقصود «الفتنة» في هذه الآية الكريمة: العذاب الدنيوي الذي أنزله الله على القوم الذين أصروا على كفرهم وطغيانهم، ولم يستجيبوا لدعوة الرسل عليهم الصلاة

والسلام وأعرضوا عن نصح الناصحين، كما قال الله -تعالى- في شأن أتباع فرعون: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ١٣٠).

أي: والله لقد عاقبنا أتباع فرعون الذين وصفوا نبيهم موسى -عليه السلام- بأنه ساحر، عاقبناهم بأن جعلنا أرضهم تصاب بالجدب والقحط وانتقاص الثمرات، لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويتذكرون ضعفهم أمام قدرة خالقهم عز وجل...

ولكنهم استمروا في طغيانهم وفجورهم، فضاعفنا عليهم العقوبة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (سورة الأعراف الآية: ١٣٣).

أي: فأرسلنا على هؤلاء المجرمين السيول التي دمرت زروعهم، والجراد الذي أكل ثمارهم، والحشرات التي أضعفت أبدانهم، والضفادع التي ضايقتهم في يقظتهم وفي منامهم، والدماء التي اختلطت بمياه أنهارهم فأفسدتها، أو بمرض الرعاف الذي جعل الدماء تسيل بشدة من أنوفهم.

وكانت هذه النقم علامات واضحات تدل على قدرتنا، ولكنهم مع كل ذلك استمروا في غرورهم وكانوا قوماً مجرمين.

والخطاب في قوله -تعالى-: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾.

لجميع المؤمنين في كل زمان ومكان.

والمعنى: داوموا أيها المؤمنون على طاعة الله -تعالى- بقوة ونشاط وإخلاص، واحذروا من أن ينزل بكم عذاب من مظاهرة: الأمراض، والفقر، اضطراب الأحوال، وانعدام الأمان...

وهذا العذاب الدنيوي سيعم عند نزوله الأخيار والأشرار، والمحسنين والمسيئين، والطائعين والعصاة.

واعلموا كذلك أن الله -تعالى- شديد العقاب لمن أصر على مخالفة أمره، على انتهاك حرماته.

فهذه الآية الكريمة قد أوجبت على الأمة الإقلاع عن المعاصي، والمحاربة لمرتكبيها، لأن الأمة التي تنتشر فيها المعاصي والفواحش، ثم لا تجد من يقاومها ويعمل على إزالتها، تستحق من الله -تعالى- العقوبة، بسبب سكوتها على المنكر، واستخذائها وجبنها.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: والقول بأن هذا التحذير يعم الجميع هو الصحيح،ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: إن الله -تعالى- لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذَّب الله الخاصة والعامة.

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله-: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله المؤمنين ألا يقروا لمنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب».

وفي الحديث الصحيح عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: «نعم إذا كثرت الخبائث».

وفي حديث آخر: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده».

وفي صحيح البخاري عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا أي: اقترعوا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادو هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

ثم قال الإمام القرطبي: «ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة. ولذا قال علماؤنا: فـ«الفتنة» إذا عمت هلك الكل... ثم يبعثون على نياتهم».

والخلاصة: أن لفظ «الفتنة» في هذه الآية الكريمة، المقصود به العذاب الدنيوي: كالأمراض، والقحط، واضطراب الأحوال في أفراد الأمة وجماعاتها.

ثم جاءت الآية الثالثة لتذكرهم بجانب من فضله عليهم، حتى يقلعوا عن كل ما يؤدي إلى نزول الفتن بهم، فقال -تعالى-: «واذكروا» أيها المؤمنون وقت أن كنتم قلة مستضعفة في أرض مكة تحت أيدي كفار قريش «تخافون أن يتخطفكم الناس».

أي: تخافون أن يأخذكم أعداؤكم أخذاً سريعاً لقوتهم وضعفكم، ولغناهم وفقركم...

﴿ ...فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

أي: فأنقذكم خالقكم مما كنتم من ضعف، بأن جعل مسكنكم المدينة المنورة وآخى بينكم إخاءً صادقاً، وألف بين قلوبكم يا معشر المهاجرين والأنصار، ورزقكم من الطيبات في المأكل والمشرب وغيرهما..

وقد فعل -سبحانه- كل ذلك معكم لعلكم تداومون على شكره وعلى طاعته، فيزيدكم من خيره ونصره وبذلك نرى أن هذه الآيات الثلاث قد جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير..

الترغيب في الطاعات وفي فعل الخيرات كما في قوله -تعالى-: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، والترهيب من المعاصي التي تؤدي إلى العذاب الدنيوي كما في قوله -سبحانه-: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾،

والتذكير بنعمه التي لا تحصى كما في قوله عزل وجل: ﴿ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾.

وقد يأتي لفظ «الفتنة» في القرآن الكريم لوصف جماعة من المنافقين بالذبذبة وضعف العقيدة،وسقوط الهمة، عمى البصيرة، والظهور بمظهر المسلمين ماداموا يجدون في الالتصاق بالإسلام الخير الدنيوي...

فإن وجدوا غير ذلك، أو أصابهم ما يعكر عليهم دنياهم وشهواتهم الدنيئة، انصرفوا عن الإسلام وعن المسلمين، وارتدوا على أعقابهم إلى الكفر والفسوق والعصيان، ومن الآيات القرآنية التي أكدت هذه الحقيقة في المنافقين قوله -سبحانه-: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ

هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ (سورة الحج الآية: ١١ - ١٢ - ١٣).

قال صاحب الكشاف الإمام جار الله الزمخشري رحمه الله قوله -سبحانه-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾

أي: على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة، كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحسن بظفر وغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها:

«ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الرجل من المنافقين يأتي إلى المدينة المنورة زاعماً أنه مسلم فإذا ولدت امرأته غلاماً، ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء...».

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يراها قد صورت المذبذبين في عقيدتهم أكمل تصوير، فهم يقيسون العقيدة بميزان الصفقات التجارية، إن ربحوا من ورائها فرحوا، وإن خسروا فيها أصابهم الغم والحزن.

وشبيه بالآية الأولى من هذه الآيات قوله -تعالى- في شأن المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (سورة التوبة الآية: ٥٨).

والتعبير بقوله -تعالى-: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ يصور هذا النوع المنافق من الناس، وكأنه يتأرجح في عبادته كما يتأرجح من يكون على طرف الشئ، فهو معرض للسقوط في أية لحظة.

والمراد من الخير في قوله -سبحانه-: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾: الخير الدنيوي من أموال ومن منصب، ومن تستر بسلطان من يحتمي به، ومن غير ذلك من الشهوات الزائلة.

أي: ومن الناس قوم ضعاف النفوس، يملأ قلوبهم النفاق، عبادتهم زائفة ولا قيمة لها، فهم إن توقعوا من ظهورهم بمظهر المسلمين خيراً دنيوياً أعلنوا إسلامهم... وإن إصابتهم «فتنة».

أي: مصيبة تتعلق بأموالهم أو بشهواتهم أو بمطامعهم، أو بغير ذلك من منافعهم الخسيسة، ارتدوا على أعقابهم، وانصرفوا إلى كل ما هو باطل وقبيح، وتركوا كل ما هو حق وجميل.

وقوله عز وجل: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

بيان لسوء عاقبة هذا النوع من الناس.

أي: هذا الإنسان الذي يعبد الله على حرف، جمع على نفسه خسارتين:

خسارة الدنيا، بسبب عدم حصوله على ما يريده منها، لأنه مهما بذل من جهد فلن يحصل إلا على ما قدره الله -تعالى- له، كما قال -سبحانه-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ (سورة الإسراء الآية: ١٨).

أي: من كان من الناس يريد بنيته وبقوله وبعمله زينة الحياة الدنيا فحسب، دون التفات إلى الدار الآخرة، عجلنا لذلك الإنسان في حياته ما نشاؤه من شهوات هذه الدنيا، وهذا التعجيل إنما هو لمن نريد عطاءه من الناس...

كما جمع على نفسه خسارة الآخرة بسبب ارتداده إلى الكفر والنفاق والفسوق والعصيان، وذلك الذي جمعه هذا الإنسان على نفسه، هو الخسران الواضح، الذي لا يختلف عليه عاقلان، إذ لا خسران أشد وأظهر من الخسران الذي شمل الدنيا والآخرة.

ثم بين -سبحانه- مظاهر خسران هذا الإنسان المنافق، وأحواله القبيحة فقال -تعالى-: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ﴾.

أي: هذا الإنسان المنافق يعبد سوى الله -تعالى- أصناما، إذا ترك عبادتها والولاء لها لا تستطيع أن تضره، وإن عبدها فلن تستطيع أن تنفعه وذلك الذي يفعله هذا الإنسان الغبي المذبذب من عبادته لما لا يضر ولا ينفع «هو الضلال البعيد» بعداً شاسعاً عن كل صواب ورشاد.

ثم أضاف -سبحانه- إلى تبكيت هذا الإنسان الجهول تبكيتاً آخر فقال: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾.

أي: يعبد هذا الإنسان المذبذب المضطرب معبوداً ضرره أكثر من نفعه، لبئس الناصر ولبئس المصاحب لهذا المعبود.

وقد يأتي لفظ «الفتنة» بمعنى فضيحة المنافقين، وهتك سترهم،وكشف مساوئهم، وعزلهم عن المؤمنين الصادقين...

ومن الآيات القرآنية التي قررت ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة النور الآية: ٦٢ - ٦٣).

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين وما بعدهما روايات ملخصها: أنه لما كانت غزوة الأحزاب التي تجمع فيها المشركون حول المدينة لغزوها، أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على الرسول ﷺ بحفر خندق حول المدينة حتى لا يستطيع المشركون دخولها، فاستحسن الرسول ﷺ هذه الفكرة، وأخذ في تنفيذها ومعه أصحابه الصادقون الذين تعبوا تعباً شديداً في حفر الخندق، وكان الواحد منهم إذا ما أراد الذهاب إلى بيته لأمر ضروري استأذن النبي ﷺ ثم عاد بكل نشاط..

أما المنافقون فكانوا يتسترون بالعمل السهل، ويتسللون إلى أهليهم دون علم الرسول ودون إذنه، فأنزل الله -تعالى- هاتين الآيتين للتمييز بين المؤمنين الصادقين، وبين المنافقين الكاذبين.

والمقصود بالأمر الجامع في قوله -سبحانه-: «وإذا كانوا معه على أمر جامع»: الأمر المهم الذي يستلزم اشتراك الجماعة في شأنه، لأنه من الأعمال العامة التي تهم الأمة.

والمعنى: إن من شأن المؤمنين الصادقين، أنهم إذا كانوا مع رسول الله ﷺ على أمر جامع من الأمور التي تستلزم اشتراكهم فيه، لم يفارقوه حتى يستأذنوه في المفارقة، لأن هذا الاستئذان دليل على قوة إيمانهم، وعلى صفاء نفوسهم، وعلى كمال أدبهم مع نبيهمﷺ.

وخص -سبحانه- الأمر الجامع بالذكر: للإشعار بأهميته وبوجوب البقاء معه ﷺ حتى يعطيهم الإذن بالانصراف، إذ وجودهم معه ﷺ يدل على صدق وفائهم له ﷺ كما يدل على تعاونهم تعاونا تاماً، حتى يصلوا إلى أفضل الحلول لهذا الأمر المهم.

ثم مدح -سبحانه- الذين لا يغادرون مجلس رسول الله ﷺ إذا كانوا معه على أمر جامع حتى يستأذنوه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

أي: إن الذين يستأذنونك أيها الرسول الكريم في تلك الأحوال المهمة، والتي تستلزم وجودهم معك، أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله حق الإيمان، لأن هذا الاستئذان في تلك الأوقات دليل على طهارة قلوبهم، وعمق يقينهم...

ثم وضح -سبحانه- وظيفة رسوله فقال: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فإذا استأذنك هؤلاء المؤمنون في الانصراف، لقضاء بعض الأمور والشئون التي هم في حاجة إليها، فأنت مفوض ومخير في إعطاء الإذن لبعضهم وفي منعه عن البعض الآخر، إذ الأمر في هذه المسألة متروك لتقديرك أيها الرسول الكريم وعليك أن تستغفر لهم الله -تعالى-فهو العظيم المغفرة والرحمة.

ثم أكد -سبحانه- وجوب التوقير لنبيه محمد ﷺ فقال: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾.

أي: لا تجعلوا أيها المؤمنون نداءكم لرسولكم محمد ﷺ كنداء بعضكم لبعض، وإنما عليكم إذا ما ناديتموه أن تنادوه بقولكم: يا نبي الله، أو يا رسول الله، ولا يليق بكم أن تنادوه باسمه مجرداً، بأن تقولوا يا محمد.

ثم حذر -سبحانه- المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم من سوء عاقبة أقوالهم وأفعالهم فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وحرف «قد» هنا للتحقيق. ولفظ «يتسللون» من التسلل بمعنى الخروج في خفاء مع تمهل وتلصص. ولفظ «لواذاً» من الملاوذة ومعناها: الاستتار بشيء مخافة الرؤية من الغير.

والمعني: إن الله -تعالى- عليم بحال هؤلاء المنافقين الذين يخرجون من مجلس الرسول في خفاء واستتار، بحيث يخرجون من الجماعة قليلاً قليلاً يستتر بعضهم ببعض حتى يخرجوا جميعاً.

فليحذر هؤلاء المنافقون الذين يخالفون أمر النبي ﷺ ويصدون الناس عن دعوته، ويتباعدون عن دعوته، فليحذروا من أن تصيبهم «فتنة».

أي: من أن تصيبهم جائحة ومصيبة ونكبة يترتب عليها، افتضاح أمرهم، وانكشاف شرهم، وهتك سترهم،واحتقار سلوكهم، وجعلهم محل مقت كل عاقل، وازدراء كل صاحب تفكير سليم..

أو أن يصيبهم من خالقهم عز وجل عذاب أليم يهلكهم عن آخرهم، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

والخلاصة: أن لفظ «الفتنة» هنا المقصود به: فضيحة المنافقين على رءوس الأشهاد.

وقد يأتي لفظ «الفتنة» لتوبيخ قوم من المنافقين اضطرب يقينهم، وسقطت همتهم، ومرضت نفوسهم، وفسدت عقولهم، حيث لم يفرقوا بين الخوف من الله -تعالى- والخوف من الناس، وبين عذاب الله -تعالى- وعذاب الناس..

ومن الآيات القرآنية التي صرحت بذلك قوله -تعالى-: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ**﴾ (سورة العنكبوت الآية: ١٠ - ١١).

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «قال مجاهد: نزلت هاتان الآيتان في جماعة من المنافقين، كانوا يظهرون الإسلام، فإذا وقع عليهم أذى من المشركين رجعوا إلى الشرك».

والمعنى: ومن الناس من يقول بلسانه دون أن يتناسب هذا القول مع ما في قلبه،

لأنهم يدعون أنهم أخلصوا عبادتهم لله -تعالى- فإذا ما أصابهم أذى من أعدائهم، رجعوا إلى الشرك...

فقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

بيان لحال هذا النوع من الناس عندما تنزل بهم المصائب والنكبات.

أي: فإذا أوذي هذا البعض بعد قوله آمنا بالله من أجل هذا القول، ومن أجل تركه الدين الباطل ودخوله في الدين الحق.. «جعل فتنة الناس».

أي: جعل عذاب الناس له وإيذاءهم إياه «كعذاب الله».

أي: بمنزلة عذاب الله في الشدة والألم، فيترتب على ذلك أن يتزلزل إيمانه، ويضعف يقينه، بل ربما رجع إلى الكفر والفسوق والعصيان، بعد زعمه الإيمان.

وفي جعل هذا البعض «فتنة الناس كعذاب الله» دليل واضح عل ضعف الإيمان، وفساد التفكير، والانحدار إلى النفاق والفسوق عن أمر الله، لأسباب:

منها: أن عذاب الناس لغيرهم في الإمكان منعه ودفعه، أما عذاب الله فلا يمكن منعه أو دفعه...

ومنها: أن عذاب الناس قد يترتب عليه ثواب عظيم لمن وقع عليه هذا العدوان، أما عذاب الله فهو بسبب غضب الله -تعالى- على من عصاه.

ومنها: أن عذاب الناس معروف في أمده ونهايته، أما عذاب الله فلا يعرف أحد مداه أو نهايته.

والخلاصة: أن المقصود بلفظ «الفتنة» هنا ذم أولئك المنافقين الذين إذا ما تعرضوا لأذى من الظالمين، تركوا الدين الحق وتحولوا إلى الدين الباطل الذي عليه المشركون.

ثم بين -سبحانه- حال أولئك المنافقين إذا ما انتصر المؤمنون الصادقون على أعدائهم فقال: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

هكذا حال المنافقين عند الشدائد، يساوون عذاب الناس بعذاب الله، ولا يثبتون على الحق، أما إذا ما انتصر الرسول وأصحابه على أعدائهم، فإن هؤلاء المنافقين يسرعون

السير نحو الرسول ونحو أتباعه ليقولوا لهم: إنا كنا معكم مؤيدين لكم، وما دام الأمر كذلك فأشركونا معكم في كل ما ترتب على نصركم على أعدائكم.

وقوله -سبحانه-: ﴿أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

رد عليهم في دعواهم الإيمان، وفي قولهم للمؤمنين «إنا معكم». والاستفهام هنا لنفى ما زعموه، ولتأكيد علم الله عز وجل الشامل للسر والعلانية.

أي إن الله -تعالى- عالم بما في صدور العالمين جميعاً من خير وشر، وإيمان وكفر، وأن هؤلاء الذين يقولون آمنا، ليس الله -تعالى- بحاجة إلى قولهم، فهو -سبحانه- يعلم السر وأخفى.

ثم أكد -سبحانه- هذا العلم مرة أخرى فقال: «وليعلمن الله» -تعالى- علماً تاماً حال «الذين آمنوا» به حق الإيمان، «وليعلمن» حال المنافقين علماً لا يخفى عليه شيء من حركاتهم وسكناتهم، وسيجازيهم بما يستحقون من عقاب.

وأكد -سبحانه- علمه بلام القسم وبنون التوكيد، للرد على دعاوى ضعاف الإيمان بأقوى أسلوب وأبلغه، حتى يقلعوا عن نفاقهم، ويتبعوا المؤمنين الصادقين في ثباتهم وإخلاصهم.

وتارة تأتى كلمة «الفتنة» والكلمات التي هي من مشتقاتها ومادتها، بمعنى تعذيب الطغاة والظالمين للمؤمنين وللمؤمنات تعذيباً شديداً مؤلماً قد يؤدى إلى الموت..

وقد ورد ذلك في آيات متعددة من القرآن الكريم، ومن هذه الآيات قوله -سبحانه-: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (سورة البروج الآيات: ٤ - ٥- ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠).

ولفظ «الأخدود» يطلق على الحفرة الكبيرة المستطيلة في الأرض. وأصحاب الأخدود: هم قوم من الكفار السابقين، حفروا حفراً مستطيلة في الأرض، ثم ألقوا فيها

الأشياء التي تشتعل فيها النار، وبعد أن اشتدت النار في تلك الحفر، قذفوا فيها كل من يخالفهم في عقائدهم من المؤمنين والمؤمنات، الذين أبو إلا إخلاص العبادة لله الواحد الأحد، الفرد الصمد.

ولفظ «الوقود» اسم لما توقد به النار كالحطب والخشب وما يشبه ذلك من المواد التي تشتعل فيها النار.

والمعنى: هلكوا ولعنوا وطردوا من رحمة الله أولئك الطغاة القساة من الكافرين الذين حفروا الحفر في باطن الأرض، ثم ملؤوها بالنيران المشتعلة، ثم ألقوا فيها بالمؤمنات وبالمؤمنين لإحراق الجميع، ولم يكتفوا بكل ذلك بل قعدوا على جوانب تلك الحفر ليشاهدوا المؤمنين والمؤمنات وهم يحترقون بالنار..

وهؤلاء الطغاة لم يفعلوا كل ذلك إلا لأن المؤمنين والمؤمنات ثبتوا على إخلاص العبادة لخالقهم، صاحب العزة التامة، وصاحب الحمد المطلق، والذي له ملك جميع ما في السموات والأرض، وهو -سبحانه- على كل شيء شهيد ورقيب، لا يخفى عليه أمر من أمور خلقه...

فالمقصود من هذه الآيات الكريمة: التعجيب من حال هؤلاء المجرمين، حيث عذبوا المؤمنين والمؤمنات، لا لشئ إلا من أجل إيمانهم بخالقهم، وكأن هؤلاء المجرمين الإيمان في نظرهم جريمة تستحق الإحراق بالنار.

وهكذا النفوس الخبيثة عندما يستحوذ عليها الشيطان، تتحول الحسنات في نظرها إلى سيئات...

وقديماً قال المنكوسون من قوم لوط -عليه السلام-: ﴿**أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ (سورة النمل الآية: ٥٦).

ثم هدد -سبحانه- الطغاة المجرمين في كل زمان ومكان بسوء المصير في الدنيا والآخرة فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾.

والمقصود بقوله -تعالى-: «فتنوا» التعذيب والتحريق بالنار من الكافرين للمؤمنين والمؤمنات.

أي: إن الظالمين المجرمين الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات، وأحرقوهم بالنار، ثم لم يتوبوا إلى الله -تعالى- من ذنوبهم، ولم يرجعوا عن تعذيبهم لمن أخلصوا العبادة لله الواحد القهار...

هؤلاء الظالمون المصرون على ظلمهم وإجرامهم لهم في الآخرة عذاب جهنم، ولهم نار أخرى زائدة على غيرها في الإحراق لهؤلاء الطغاة المجرمين.

وجمع -سبحانه- بين عذاب جهنم لهم، وبين عذاب الحريق، لبيان أن العذاب لهم مضاعف بسبب طغيانهم وشركهم.

وشبيه بما سبق في سورة «البروج» من أن كلمة «الفتنة» وما اشتق منها قد تأتي بمعنى التعذيب من الطغاة للمؤمنين، قوله -تعالى-:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة يونس الآية: ٨٣).

والمعنى: لقد أرسل الله -تعالى- نبيه موسى -عليه السلام- إلى فرعون وقومه ليأمرهم بإخلاص العبادة لله -تعالى- ولكنهم قالوا عنه بأنه ساحر كذاب، ولم يؤمن به سوى عدد قليل منهم...

كما كانت رسالة موسى -عليه السلام- أيضاً إلى قومه من بنى إسرائيل، فما آمن به منهم إلا عدد قليل من شبابهم، وكان إيمانهم بموسى -عليه السلام- مصحوباً بخوف شديد من فرعون وشيعته «أن يفتنهم».

أي: أن يعذبهم هو شيعته عذاباً شديداً بسبب إيمانهم بأن موسى -عليه السلام- رسول من عند الله -تعالى- وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه.

فقوله -سبحانه-: «أن يفتنهم».

أي: أن يعذبهم، والضمير هنا يعود لفرعون خاصة، لأنه هو الآمر لحاشيته بالتعذيب

والإيذاء والقتل لمن آمن بموسى -عليه السلام- ولأن تلك الحاشية كانت تأتمر بأمره، فأفرادها كانوا كالآلة في يده يصرفها كيف يشاء...

ويشير إلى ذلك قوله -سبحانه- في ختام الآية: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة النحل الآية: ١١٠).

أي: وإن فرعون لكثير الطغيان والظلم في أرض الله التي جعلها -سبحانه- لعباده الصالحين، وإن هذا الطاغية لمن المسرفين المتجاوزين لكل حد في الإجرام والبغي وادعاء ما ليس من حقه.

وقد تأتي هذه الكلمة وما اشتق منها كلفظ «فتنوا» في وصف قوم من المؤمنين عذبهم أعداؤهم عذاباً شديداً، ولكن هؤلاء المؤمنين صبروا على هذا التعذيب في باطنهم، وتظاهروا أحياناأمام أعدائهم بأنه سيوافقونهم في مذاهبهم وفي اتجاهاتهم لكي يخففوا عنهم العذاب والإيذاء..

ومن الآيات القرآنية التي أشارت إلى هذا المعنى قوله -سبحانه-: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فقوله -سبحانه-: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾.

أي: من بعد أن أصابهم من أعدائهم الأذى الشديد، والعدوان الأثيم.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «والمقصود بهؤلاء الذين هاجروا من بعد ما فتنوا، جماعة من المؤمنين كانوا مستضعفين في مكة، مهانين في قومهم، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة من أذى أعدائهم، حيث تركوا أهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله -تعالى- وانتظموا في صفوف المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين..».

والمعنى: ثم إن ربك أيها الرسول الكريم تكفل بالنصرة والمغفرة لهؤلاء المؤمنين الذين هاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان وكانت هجرتهم من بعد تعذيب المشركين لهم لكي يرتدوا عن دينهم، ومن بعد أن سايروا المشركين ولاينوهم لكي يتقوا شرهم، ثم جاهدوا أعداءهم حتى تكون كلمة الله هي العليا، وصبروا على البلاء طلباً لرضي خالقهم...

إن ربك أيها الرسول الكريم من بعد هذه الأهوال والأفعال لكثير المغفرة والرحمة لهم، جزاء هجرتهم وجهادهم وصبرهم على الأذى، لأنه عز وجل غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

وقد تأتي كلمة «فتنة» بمعنى الغرور، وجحود النعمة، ونسيان فضل الله -تعالى- على عباه، ونسبة ما بين يدي الإنسان من أرزاق وفيرة إلى علمه وجهده وذكائه لا إلى عطاء الله -تعالى- وكرمه...

ومن الآيات القرآنية التي حذرت من هذا الغرور قوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الزمر الآية: ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢).

والمقصود بالإنسان في قوله -سبحانه-: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ...﴾.

كل إنسان جاحد مغرور، ينسب ما بين يديه من نعم وخيرات إلى نفسه، ناسياً فضل خالقه ورازقه عليه.

والمعنى: فإذا أصاب الإنسان الجهول شئ من الضرر: من مرض أو فقر أو نحوهما، دعانا في حال قعوده وفي حال قيامه، وفي كل هيئاته، لكي نكشف عنه ما نزل به من بلاء... ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا...﴾.

أي: ثم إذا اجبنا هذا الإنسان دعوته، وكشفنا عنه المصائب التي نزلت به، وأعطيناه على سبيل التفضل والإحسان نعمة من عندنا، بأن حولنا مرضه إلى صحة، وفقره إلى غنى، وفزعه وهلعه إلى أمن واستقرار..

إذا ما أعطينا هذا الإنسان كل ذلك «قال» هذا الإنسان الظلوم المغرور «إنما أوتيته على علم» منى بوجوه المكاسب، وبألوان الحصول على الأموال، بسبب علمي وذكائي واجتهادي وتفوقي في مباشرة الأسباب التي توصلنى إلى الغنى والثراء والجاه والسلطان..

وقوله -سبحانه-: ﴿ .. بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ... ﴾

رد على غرور هذا الإنسان الجهول، وزجر له على ما تفوه به.

أي: ليس الأمر كما زعم هذا الجاحد لنعمنا، لأننا ما أعطيناه هذه النعم بسبب علمه، وإنما أعطيناه ما أعطيناه على سبيل الإحسان منا، وعلى سبيل الابتلاء والاختبار له،ليتبين قوى الإيمان من ضعيفه، وليتميز الشاكر من الجاحد.

وقوله -سبحانه-: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

استدراك قصد به زيادة التوبيخ لهذا الإنسان المغرور الذي زعم أن «الفتنة» منحة، وأن الشر خير.

أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق، ولا يفطن إليها إلا من استنارت بصيرته، وطهرت سريرته، واستقام تفكيره.

ثم بين -سبحانه- المصير السئ للجاحدين السابقين، ليعتبر بهم اللاحقون فقال: ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾، والضمير في قوله -تعالى-: «قد قالها» يعود إلى ما قصه القرآن علينا عن هذا الإنسان الجاحد من قوله: «إنما أوتيته على علم».

فهذه الكلمة قد قالها «قارون» عندما نصحه الناصحون، فقد رد عليهم بقوله: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ... ﴾ (سورة القصص الآية: ٧٨).

فكانت نهايته أن خسف الله به وبداره الأرض.

والمعنى: قد قال هذه الكلمة الدالة على الغرور والبطر، بعض الأقوام الذين سبقوا قومك أيها الرسول الكريم فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله -تعالى- أخذ عزيز مقتدر، ولم ينفعهم شيئاً ما جمعوه من حطام الدنيا، وما اكتسبوه من متاعها.

بل لقد نزل بهؤلاء السابقين الجاحدين لنعمنا، العقاب الذي يستحقونه بسبب سيئاتهم التي اكتسبوها واقترفوها في دنياهم..

والذين ظلموا من هؤلاء المشركين المعاصرين لك يا محمد سيصيبهم أيضاً سيئات ما

كسبوا، وما هم بفائتين أو هاربين من عذابنا، ثم أضاف -سبحانه- إلى هذا التوبيخ والوعيد لهؤلاء الجاحدين الجاهلين توبيخاً ووعيداً آخر فقال: ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: أبلغ عمي البصيرة، وانطماس العقل بهؤلاء الضالين إلى هذا الدرك الأسفل من الجهل، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله -تعالى- يوسع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه منهم، لأن ذلك مرده إلى مشيئته وحكمته، وإن سعة الرزق ليست دليلاً على رضاه، وإن ضيقه ليس دليلاً على غضبه..

وإن في كل ذلك الذي ذكرناه لعلامات واضحات لقوم يؤمنون بالحق، ويستجيبون له، وينتفعون بالهدايات التي نسوقها لهم.

وقد يأتي لفظ «الفتنة» بمعنى السقوط في الفواحش، والتردي في القبائح..

ومن الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة «الفتنة» بهذا المعنى قوله -تعالى-: ﴿مِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (سورة التوبة الآية: ٤٩).

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية، أن الرسول عندما عزم على غزوة «تبوك» لقتال الروم، قال لزعيم من زعماء المنافقين هو «الجد بن قيس»: هل لك في قتال بنى الأصفر أي الروم؟ فقال «الجد بن قيس»: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني؟ فو الله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء منى، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن.

فأعرض عنه الرسول ﷺ وقال له: «قد أذنت لك في القعود» وفيه نزلت هذه الآية.

والمعنى: ومن هؤلاء المنافقين الذين ذكرنا لك أيها الرسول الكريم ألواناً من رذائلهم...

منهم من قال لك عندما دعوته للخروج معك إلى تبوك:«أئذن لي» في القعود بالمدينة «ولا تفتني».

أي: ولا توقعني في المعصية والإثم، بسبب خروجي معك إلى «تبوك» ومشاهدتي لنساء الروم.

وعبَّر -سبحانه- عن قول هذا المنافق بالفعل المضارع، لاستحضار تلك الحال لغرابتها، فإن مثله في نفاقه وفجوره لا يخشى إثم الافتتان بالنساء، إذ لا يجد من دينه مانعاً من غشيان الشهوات التي حرمها الله -تعالى-.

وقوله -سبحانه-: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا..﴾.

رد على هذا المنافق فيما قال، وتوبيخ له على ما تفوه به من كلام قبيح.

والمعنى: ألا إن هذا المنافق وأمثاله في ذات «الفتنة» وفي التردي في القبائح قد سقطوا، لا في أي شئ آخر سوى ذلك.

قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله ما ملخصه: وفي هذه الجملة تنبيه على أن هؤلاء المنافقين إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا في «الفتنة» أي: في المعاصى فالله -تعالى- بيّن أنهم في عين «الفتنة» واقعون، لأن أعظم أنواع «الفتنة» الكفر بالله وبرسوله، والتمرد على قبول التكاليف التي كلفنا الله بها.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

ختام للآية الكريمة قصد به التهديد والوعيد لهؤلاء المنافقين على أقوالهم الباطلة، وأفعالهم السيئة.

أي: وإن جهنم لمحيطة بهؤلاء الكافرين بالحق، دون أن يكون لهم منها مهرب أو مفر.

وقد يأتي لفظ «الفتنة» والمقصود به الارتداد عن الإسلام، ومحاربة المسلمين، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾

(سورة الأحزاب الآية: ١٤).

وهذه الآية الكريمة قد جاءت ضمن آيات كثيرة تحدثت عن المواقف المخزية للمنافقين خلال عدوان جيوش الأحزاب على المدينة المنورة في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة...

وكان عدد المشاركين في هذه الغزوة من الأعداء ما يقرب عشرة آلاف، بعضهم من قريش، وبعضهم من قبائل أخرى كقبيلة غطفان، وبعضهم من اليهود.

وعندما علم الرسول ﷺ بمقدمهم، أمر أصحابه بحفر خندق حول المدينة المنورة.

ومكث الأعداء محاصرين للمدينة قريباً من شهر، ثم جاء نصر الله -تعالى- بأن أرسل على جيوش الأحزاب ريحاً شديدة، وجنوداً من عنده، فتصدعت جبهات الأحزاب، وازدادت حسرة المنافقين الذين كانوا يناصرون جيوش الأحزاب، مع أن هؤلاء المنافقين كانوا يعيشون مع الرسول ﷺ ومع أصحابه في داخل المدينة.

وهذه الآية الكريمة تصور بأسلوبها البليغ المؤثر ما كان عليه المنافقون من جبن وخور، ومن مسارعة إلى كل ما يؤذي المؤمنين.

والضمير في قوله -تعالى- «دخلت» يعود للبيوت أو للمدينة المنورة. وفاعل الدخول كل من يدخل هذه البيوت المنتشرة بالمدينة المنورة من أهل الشرك والفساد.

وأسند-سبحانه- الدخول إلى البيوت، للإشعار بأن الأعداء يدخلونها وأصحابها من المنافقين قابعون فيها، والرعب والجبن يملآن قلوبهم.

ولفظ الأقطار: جمع قطر بمعنى الناحية والجانب والجهة.

والمقصود بلفظ «الفتنة» هنا: الردة عن الإسلام وإيذاء المسلمين.

وقوله: «لآتوها» قراءة الجمهور بالمد بمعنى لأعطوها.

وقرأ نافع وابن كثير «لأتوها» بالقصر بمعنى لجاءوها...

والمعنى: إن هؤلاء المنافقين الذين قالوا «إن بيوتنا عورة»: هم كاذبون في قولهم هذا....

والدليل على كذبهم: أن بيوتهم هذه التي يزعمون أنها عورة، لو اقتحمها عليهم مقتحم من المشركين وهم قابعون فيها، ثم طلب منهم أن ينضموا إليه في قتال المسلمين، لساروا إلى تلبية طلبه، ولكانوا مطيعين له كل الطاعة، وما تأخروا عن تلبية طلبه إلا لمدة قليلة، يعدون العدة خلالها لقتالكم أيها المسلمون ولانسلاخ عن كل رابطة تربطكم بهم، لأن عقيدتهم زائفة، وقلوبهم خربة، ونفوسهم مريضة.

قال صاحب الكشاف -رحمه الله-: قوله -تعالى-: ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة على المنافقين بيوتهم من نواحيها كلها، وانثالت على أهاليهم وأولادهم، ناهبين سابين، ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك الرجفة «الفتنة».

أي: الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين، لأتوها، أي: لجاءوها، ولفعلوها « وما تلبثوا بها إلا يسيراً » ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف....

وهكذا نرى أن لفظ «الفتنة» قد يأتي بمعنى الغرور وجحود النعمة، أو بمعنى السقوط في الرذائل والفواحش، أو بمعنى الارتداد إلى الكفر والفسوق والعصيان، ونعوذ بالله من كل ذلك.

قوله -تعالى-: ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ (سورة النساء الآية: ٩١).

وهذه الآية الكريمة قد جاءت ضمن مجموعة من الآيات التي فضحت المنافقين، وكشفت عن مسالكهم الذميمة، وأخبرت عن حكم الله -تعالى- فيهم...

وافتتحت هذه الآيات بقوله -سبحانه-: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ (سورة النساء الآية: ٨٨).

والمعنى: لقد سقت لكم أيها المؤمنون من أحوال المنافقين ما يكشف عن خبثهم ومكرهم، وبينت لكم من صفاتهم ما يدعو إلى الحذر منهم وسوء الظن بهم، وإذا كان هذا هو حالهم فما الذي سوغ لكم أن تختلفوا في شأنهم إلى فئتين؟ فئة تحسن الظن بهم، وفئة أخرى صادقة الفراسة تحتقرهم وتعرض عنهم، والحال أن الله -تعالى- قد حكم عليهم بالفسوق والكفر والعصيان، فهل تريدون أيها المؤمنون أن تهدوا من أضله الله، ومن يكتب الله -تعالى- عليه الضلالة فلن تجد أحداً يهديه ويرشده...

ثم تحدثت السورة الكريمة عن فريق من المنافقين المخادعين الذين لا يضمرون

للمؤمنين إلا شراً، ولا يمدون أيديهم إلى أهل الحق إلا بالسوء فقال -تعالى-: ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾.

والمعنى: ستجدون أيها المؤمنون قوماً من المنافقين سوى الذين وصفتهم لكم، يريدون بإظهارهم للإسلام أن يأمنوكم وينالوا شيئاً من عطائكم...

ويريدون في الوقت نفسه بإظهارهم للكفر أن يأمنوا قومهم من المشركين من الأذى والقطيعة...

ومن صفات هؤلاء المنافقين المذبذبين أنهم كلما دعاهم داع من المشركين إلى الردة وإلى ترك الإسلام، سارعوا إلى طاعته، وارتكسوا في الضلال والخسران.

قال الإمام ابن جرير رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «هم ناس من المنافقين كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا».

فالمقصود بـ«الفتنة» في قوله -سبحانه-: كلما ردوا إلى «الفتنة» أركسوا فيها: الخداع والذبذبة والمسارعة إلى الرجوع إلى الكفر والنفاق، بعد أن تظاهروا مع المؤمنين بالإسلام.

ثم بين -سبحانه- ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء المنافقين المخادعين فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾.

أي: أن هؤلاء المنافقين المذبذبين إن لم يعتزلوا قتالكم، ويكفوا عن التعرض لكم بسوء، ويلقوا إليكم الأمان والانقياد، ويمتنعوا عن العدوان عليكم..

إن لم يفعلوا ذلك فخذوهم أسرى، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ووجدتموهم وظفرتم بهم، واعلموا أن الله -تعالى- ناصركم عليهم، بسبب ظهور عدواتهم لكم، وانكشاف غدرهم، وتذبذهم بين الإسلام والكفر تبعاً لشهوات نفوسهم المريضة.

وقد يأتي لفظ «الفتنة»: بمعنى: توهم أن المعاصي لا تؤدي إلى العقاب، ومن الآيات

القرآنية التي حذرت الناس من هذا التوهم، ومن أن سنن الله -تعالى- في خلقه تحارب هذا التوهم..

من هذه الآيات قوله -تعالى-: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة الآية: ٧٠ - ٧١).

والمقصود بالميثاق هنا: العهد الموثق والمؤكد الذي أخذه الله -تعالى- على بنى إسرائيل بواسطة أنبيائهم، بأن يؤدوا ما كلفهم به -سبحانه- من تكاليف، وأن يتبعوا النبي ﷺ عند ظهوره.

والمعنى: والله لقد أخذنا العهود المؤكدة على بنى إسرائيل، بأن يعبدوني ولا يشركوا معي في العبادة أحداً، وبأن ينفذوا ما أمرتهم به، وبأن يجتنبوا ما نهيتهم عنه، وأرسلنا إليهم رسلاً كراما لكم يتعهدوهم بالتبشير والإنذار، ولكي يرشدوهم إلى ما ينفعهم ويصلحهم..

وقوله عز وجل: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

بيان لموقفهم السئ من الميثاق الذي أخذه خالقهم عليهم، ومن الرسل الكرام الذين أرسلهم الله -تعالى- لهدايتهم وسادتهم.

أي: أخذنا الميثاق المؤكد عليهم، وأرسلنا إليهم رسلاً كثيرين لهدايتهم، ولكنهم نقضوا العهود، وعصوا الرسل، فكانوا كلما جاءهم رسول بما لا تشتهيه نفوسهم الشقية، وبما لا تميل إليه قلوبهم الردية، ناصبوه العداء، فكذبوا بعض الرسل، ولم يكتفوا مع البعض الآخر بالتكذيب، بل أضافوا إلى التكذيب القتل لبعض الرسل.

وقال -سبحانه-: ﴿بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾.

للمبالغة في ذمهم، إذ هوى النفس، ميلها في الغالب إلى الشهوات التي لا تنبغي، والرسل ما أرسلهم الله -تعالى- إلا لهداية الأنفس، وكفها عن شهواتها التي يؤدى الوقوع فيه إلى المفاسد.

وهكذا الأمم عندما تفسد عقولها، وتسيطر عليها الأطماع والشهوات، ترى الحسن قبيحاً، وتحارب من يهديها إلى الرشاد حتى لكأنه عدو لها.

ثم بيّن -سبحانه- بعد ذلك أنهم مع ما فعلوه مع رسلهم التكذيب والقتل لم ينزجروا ولم يندموا، وإنما بلغ بهم السفه والغفلة والغرور أنهم ظنوا أن ما فعلوه شيئاً هيناً، وأنه لن يكون له أثر سئ في حياتهم، فقال -تعالى-: ﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله -تعالى-: «وحسبوا» من الحسبان بمعنى الظن.

ولفظ «فتنة» المراد به هنا في هذه الآية: العقوبات والمصائب التي تنزل بالناس بسبب بغيهم وظلمهم وإصرارهم على النفاق والشرك والخروج عن طاعة الله -تعالى-.

وقوله -سبحانه-: « فعموا وصموا» من العمى الذي هو ضد الإبصار، ومن الصمم الذي هو ضد السمع. وقد استعيرا هنا للإعراض عن دلائل الهدى والرشاد التي جاء بها الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام .

والمعنى: إن بنى إسرائيل قد أخذنا عليهم العهد المؤكد، وأرسلنا إليهم الرسل لهدايتهم، فكان حالهم أنهم كذبوا بعض الرسل، وقتلوا البعض الآخر، ولم يكتفوا بهذا، بل توهموا لغرورهم وجهلهم أنهم مهما فعلوا من رذائل، لن يصيبهم بلاء أو عقوبة، فترتب على جهالاتهم هذه أن تمادوا في فنون البغي، وعموا وصموا عن إتباع الحق...

ثم كان من رحمة الله -تعالى- بهم أن قبل الله -تعالى- توبتهم بعد أن رجعوا عما كانوا عليه من فساد، ثم نكسوا على رءوسهم مرة أخرى، فعادوا إلى ارتكاب الفواحش والقبائح، إلا عدداً قليلاً منهم استمر على توبته، فغفر الله -تعالى- له خطاياه، والله -تعالى- لا يخفى عليه شئ من أحوال خلقه.

فالآية الكريمة توبيخ شديد لكل من ارتكب الموبقات ثم استمر على ذلك، متوهماً أن الله -تعالى- لن يعاقبه على أقواله السيئة، وأعماله القبيحة، وسلوكه الذميم.

وهذا شأن الأمم إذا ما استحوذ عليها الشيطان، وتغلب عليها حب الشهوات، وكثر فيها الجاهلون والمغرورن الذين يظنون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه -سبحانه- لا يحاسبهم على ظلمهم.

وقوله -سبحانه-: «كثير منه» دل على أن العمى والصمم قد حدث لأكثرهم، وأن هناك قلة منهم قد بقيت على إيمانها وصدق توبتها.

وهذا من إنصاف القرآن للناس في أحكامه، ومن دقته في ألفاظه، ومن احتراسه فيما يصدره من أحكام.

وقد ترد كلمة «الفتنة» وما اشتق منها بمعنى الكفر والضلال والإبعاد عن الصراط المستقيم..

ومن الآيات القرآنية التي قررت ذلك قوله -سبحانه-: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة المائدة الآية: ٤١).

فهذه الآية الكريمة مسوقه لتسلية الرسول عما أصابه من أذى قام به المنافقون واليهود.

والمعنى: يا أيها الرسول الكريم، إن ربك يقول لك: لا تهتم ولا تبال بهؤلاء المنافقين، وبأولئك اليهود الذين يسارعون إلى الكفر، ويقولون بأفواههم آمنا بك وصدقناك، والحال أن قلوبهم خالية من الإيمان ومليئة بالكفر والنفاق والفسوق والعصيان.

واعلم أن هؤلاء الذين يسارعون في الكفر فريقان:

فريق المنافقين الذين قالوا آمنا ولم تؤمن قلوبهم.

وفريق اليهود الذين حسدوك على ما آتاك الله من فضله.

واعلم أيها الرسول الكريم أن هؤلاء جميعاً، كثيرو السماع لكل ما هو كذب، وكثيرو

السماع والقبول والاستجابة لكل ما يقوله أعداؤك الذين لم يحضروا مجلسك، ولم يسمعوا قولك.

ومن صفاتهم كذلك: يحرفون الكلام الحق إلى كلام باطل، عن تعمد وإصرار، فهم لا يحرفونه عن جهل، وإنما عن علم، بدليل أنهم يقولون لعامتهم: إن أفتاكم محمد بما قلناه لكم فصدقوه، وإن أفتاكم بغير ما قلناه لكم فلا تتبعوه.

واعلم أيها الرسول الكريم أن من يرد الله «فتنته».

أي: من يقض الله -تعالى- بكفره وإضلاله فلن تملك له من الله شيئاً من الهداية لتدفع بها ضلاله وكفره...

أولئك المنافقون ومن كان على شاكلتهم في الصفات الذميمة، هم الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الخداع والغش، لأنهم حين زاغوا عن الخير والرشد، أزاغ الله قلوبهم.

وهؤلاء لهم في الدنيا فضيحة وهوان، ولهم في الآخرة النار وبئس القرار.

وقد تأتي كلمة «الفتنة» ومشتقاتها في مجال تخبط المنافقين، وترديهم في الكفر والضلال والغرور، ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (سورة الحديد الآية: ١٢ - ١٣ - ١٤).

فهذه الآيات الكريمة وردت لبيان ما أعده الله -تعالى- للمؤمنين والمؤمنات من ثواب بسبب إيمانهم وتقواهم، وما توعد به -سبحانه- المنافقين والمنافقات من عقاب، بسبب تخبطهم في الضلال والفساد، وإصرارهم على السير في طريق الشيطان.

والمعنى: واذكر أيها العاقل لتتعظ وتعتبر، يوم تشاهد المؤمنين والمؤمنات يوم

القيامة، يتحرك نورهم معهم من أمامهم، ومن جهة يمينهم، على سبيل التشريف والتكريم لهم.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يقول -تعالى- مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: «أنهم يوم القيامة، يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم».

كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، ويمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم» .

والباء في قوله -تعالى-: «وبأيمانهم» بمعنى عن. واقتصر على جهة اليمين على سبيل التشريف لتلك الجهة.

والمقصود: أن نورهم يحيط بهم من جميع جوانبهم.

وقوله -سبحانه-: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

مقول لقول محذوف.

أي: تقول الملائكة يوم القيامة للمؤمنين والمؤمنات على سبيل التكريم والتحية: نبشركم اليوم بجنات عظيمة، تجرى من تحتها الأنهار، حالة كونكم خالدين فيها خلوداً أبدياً، وذلك الذي أنتم فيه من نور يسعى بين أيديكم، ومن جنات أنتم خالدون فيها، هو الفوز العظيم الذي لا يعادله فوز أو فلاح.

وبعد هذه البشارة العظيمة من الله -تعالى- للمؤمنين والمؤمنات، جاء الوعيد الشديد منه -سبحانه- للمنافقين والمنافقات فقال -تعالى-: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

أي: واذكر أيها العاقل أيضاً يوم يقول المنافقون والمنافقات، الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، يقولون للذين آمنوا على سبيل التذلل والتحسر... ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

أي: انتظرونا وتريثوا في سيركم لكي نلحق بكم، فنستنير بنوركم الذي حرمنا منه، وننتفع بالانتفاع بشئ من نوركم الذي أكركم الله به.

وقوله -سبحانه-: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾.

حكاية لما يرد به عليهم المؤمنون أو الملائكة.

أي: قال المؤمنون في ردهم على هؤلاء المنافقين: ارجعوا وراءكم حيث الموقف الذي كنا واقفين فيه فالتمسوا منه النور، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً، عن طريق تحصيل سببه وهو الإيمان، أو ارجعوا خائبين فلا نور لكم عندنا.

ثم بيّن -سبحانه- ما حدث للمنافقين بعد ذلك فقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

أي: فضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بحاجز عظيم، هذا الحاجز العظيم، والسور الكبير، له باب، باطن هذا الباب مما يلى المؤمنين فيه الرحمة.

أي: فيه الجنة، وظاهر هذا الباب مما يلى المنافقين يأتي من جهته العذاب.

قالوا: هذا السور هو الحجاب المذكور في سورة «الأعراف» في قوله -تعالى-: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ...﴾ (سورة الأعراف الآية: ٤٦).

والمقصود بهذه الآية الكريمة: بيان أن المؤمنين في مكان آمن تحيط به الجنة، أما المنافقون ففي مكان مظلم يؤدي بهم إلى النار وبئس القرار.

ثم قص علينا القرآن الكريم أن المنافقين لم يكتفوا بهذا الرجاء للمؤمنين، بل أخذوا ينادونهم في تحسر وتذلل فيقولون لهم: ألم نكن معكم في الدنيا أيها المؤمنون نصلى كما تصلون، وننطق بالشهادتين كما تنطقون؟

وهنا يرد عليهم المؤمنون بقولهم: بلى كنتم معنا في الدنيا تنطقون بالشهادتين وتتظاهرون بالاسم... ولكنكم «فتنتم أنفسكم».

أي: ولكنكم في حياتكم الدنيا أضللتم أنفسكم بالنفاق الذي هو كفر باطن، وإسلام ظاهر، وترديتم في الفسوق والعصيان.

فالمقصود بالافتتان هنا: ضلال النفس، وعمى القلب، ومحاربة الحق، ومناصرة الباطل.

ثم أضاف -سبحانه- إلى هذه الرذيلة التي تلبس بها المنافقون رذائل أخرى فقال: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

أي: ولكنكم أيها المنافقون والمنافقات أضللتم أنفسكم، وشككتم في الحق، وانتظرتم وقوع المصائب بالمؤمنين، وأعرضتم عن الحق الذي جاءكم به الرسول ﷺ وتوهمتم أنكم على الحق، وقلتم إذا ما نصحكم الناصحون: «إنما نحن مصلحون» مع أنكم على رأس المفسدين، وأصررتم على نفاقكم، وبقيتم على فتنتكم وضلال أنفسكم حتى انتهت حياتكم، وخدعكم الشيطان وأوقعكم في النار وبئس القرار.

وقد يأتي لفظ «الفتنة» ويكون المقصود به الثبات والاستمرار في قتال المعتدين حتى تخمد كلمة الباطل، وتعلو كلمة الحق، وتصير العبادة لله -تعالى- وحده...

ومن الآيات القرآنية التي دلت على ذلك قوله -تعالى-: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة الآيات: ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣).

والمعنى: وقاتلوا أيها المؤمنون من أجل إعلاء كلمة الحق أعداءكم الذين أعدوا أنفسهم لقتالكم، وتحققتم من سوء نياتهم، وفساد طويتهم، ولا تتجاوزوا في قتالهم غيرهم كالصبيان والنساء والشيوخ والمرضى ممن لا صلة لهم بالعدوان عليكم، واعلموا أن الله -تعالى- لا يحب المعتدين.

وعليكم أيها المؤمنون أن تواصلوا تأديب من آذنا لكم بقتاله حيث وجدتموه لأنه قد بدأكم بالعدوان وهو مستمر على عدوانه...

وعليكم أن تخرجوا هؤلاء المعتدين الظالمين من المكان الذي أخرجوكم منه وهو مكة المكرمة...

وقوله -سبحانه-: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾.

دفع لما قد يقع من بعض المسلمين من استعظام قتل المشركين المعتدين على المسلمين في مكة.

فالمقصود بـ«الفتنة» هنا على الراجح ما كان يفعله المشركون في مكة مع المسلمين من تعذيبهم ومحاولة منعهم من الدخول في الإسلام، وإخراجهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله...

ولا تقاتلوا أيها المؤمنون أعداءكم عند المسجد الحرام احتراماً له حتى يبدأ المشركون قتالكم عنده، فإن بدءوكم بالقتال فيه فلا حرج عليكم في قتلهم عنده، ومثل هذا العقاب العادل يجازي الله الكافرين.

فإن تركوا قتالكم والعدوان عليكم فاتركوا قتالهم ولا تتعرضوا لهم فإن الله غفور رحيم.

ثم أكد -سبحانه- وجوب قتال المشركين المصرين على شركهم وعلى عدوانهم على المؤمنين فقال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾.

ويبدو أن المقصود بـ«الفتنة» هنا: المداومة على تأديب المعتدين المبطلين، حتى يرتفع صوت الحق، ويخمد صوت الباطل كما سبق أن أشرنا

فيكون المعنى: قاتلوا أيها المؤمنون أعداءكم الذين أصروا على إيذائكم وقتلكم، واستمروا على ذلك حتى تعلو كلمة الحق، وتزول كلمة الباطل، وحتى تكون العبادة والطاعة لله -تعالى- وحده...

فإن امتنع هؤلاء المعتدون عن قتالكم وعن إيذائكم والإساءة إليكم، فكفوا عن قتالهم،واجعلوا قتالكم للظالمين لا لغيرهم.

وشبيه بهذه الآية قوله -تعالى-: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٣٩).

أي: وعليكم أيها المؤمنون أن تستمروا في قتال المصرين على حربكم، حتى تزول

صولة البغى والشرك، وحتى تعلو كلمة الحق، وحتى تعيشوا أحراراً في أداء عباداتكم، وحتى تكون العبادة لله الواحد القهار، فإن كفوا عن قتالكم فاتركوا قتالهم، واعلموا أن الله -تعالى- معكم، وهو بصير وعليم بأحوال خلقه.

وقد تأتي كلمة «الفتنة» بمعنى التحذير من تفرق الكلمة ومن تخاذل واختلاف المؤمنين فيم بينهم، كما في قوله -سبحانه-: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**﴾ (سورة الأنفال الآية: ٧٢).

أي: والذين كفروا بالله -تعالى- وأشركوا معه -سبحانه- في العبادة آلهة أخرى لا تضر ولا تنفع، بعضهم ينصر بعضاً في الباطل وفي المداومة على إيذائكم وعلى إنزال كل شر وسوء بكم..

وإذا كان هذا شأنهم مع شركهم وعدوانهم، فأولى بكم أنتم أيها المؤمنون أن تكونوا فيما بينكم أكثر تناصراً وتعاوناً ومحبة وتواصلاً وتآزراً...

فإن لم تفعلوا هذا التناصر والتعاون فيما بينكم، تحصل لكم «فتنة«.

أي: مضرة كبيرة في أرضكم، ومفسدة شديدة في حياتكم، ويضعف شأنكم، وتضيع قوتكم، وتسفك دماؤكم، ويتطاول عليكم أعداؤكم...

فالمقصود بكلمة «الفتنة» هنا: التحذير من انتشار التفرق والتخاذل والتنازع بين المؤمنين؛ لأن هذه الرذائل تجعل عاقبة أصحابها فرطاً.

وقد تأتي مادة «الفتنة» مشتقاتها بمعنى التحذير من وسوسة الشيطان ومن نزغاته وطاعته، ومن الآيات القرآنية التي أشارت إلى هذا المعنى قوله -سبحانه-: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الأعراف الآية: ٢٧).

وهذه الآية الكريمة جاءت بعد بضع عشرة آية تحدثت بشئ من التفصيل عن جانب من قصة آدم -عليه السلام- وكيف أن إبليس قد خدعه وحرضه على الأكل من الشجرة التي نهاه الله -تعالى- عن الأكل منها...

وجاءت أيضاً ضمن أربع نداءات وجهها -سبحانه- إلى بنى آدم، أولها قوله -تعالى-: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف الآية: ٢٦).

أي: يا بني آدم تذكروا واعتبروا واشكروا الله على ما حباكم من نعم، فإنه -سبحانه- قد هيأ لكم سبيل الحصول على الملبس الذي تسترون به عوراتكم، وتتزينون به في مناسبات التجمل والتعبد..

وهيأ لكم -سبحانه- ما هو أفضل من ذلك وهو لباس التقوى الذي يصون نفوسكم من الدنايا والخطايا، وذلك الذي منحه لكم -سبحانه- من نعم وخيرات، هو من إحسانه وفضله لعلكم تتذكرون ولا تعودون إلى النسيان الذي أوقع أباكم في المعصية بسبب وسوسة إبليس له.

ثم جاء النداء الثاني وهو قوله -تعالى-: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾.

أي: يا بني آدم لا يصرفنكم الشيطان عن طاعة الله، بأن تتبعوا خطواته ونزغاته، وبأن تمكنوه من أن يوقعكم في المعاصي كما أوقع أبويكم من قبل فيها، فكان ذلك سبباً في خروجهما من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها.

وقوله -تعالى-: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾.

جملة حالية من أبويكم.

أي: أخرجهما من الجنة حال كونه نازعاً عنهما لباسهما.

وأسند -سبحانه- النزع إلى الشيطان لأنه كان متسبباً فيه.

ثم أكد -سبحانه- تحذيرهم من الشيطان بجملة تعليلية فقال: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

أي: إن الشيطان وجنوده يرونكم يا بني آدم وأنتم لا ترونهم. فالجملة الكريمة تعليل للنهي السابق، وهو قوله: « لا يفتننكم» وأعتى، وتأكيد للتحذير، لأن العدو إذا أتى من

حيث لا يرى كان أشد وأعتى، ولذا قال بعض الحكماء: «إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا على من عصمه الله».

ثم بيّن سنته في خلقه فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنا صيرنا الشياطين قرناء وأصدقاء للذين لا يؤمنون بالحق، متمكنين من إغوائهم، لأن حكمتنا اقتضت أن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن، متجانسين مع المشركين الذين هم شرار الإنس.

وقد تأتي مادة «الفتنة» بمعنى التحذير من الاستماع إلى أقوال الضالين، أو الاستجابة لمطالبهم السيئة، أو الالتفات إلى مقاصدهم الخبيثة..

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي حذرت من ذلك قوله -تعالى-: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (سورة المائدة الآية: ٤٩).

وهذه الآية الكريمة قد جاءت ضمن مجموعة من الآيات التي مدحت الكتب السماوية التي أنزلها الله -تعالى- على أنبيائه ليحكموا بين الناس بها، وذمت الذين يحاولون التحلل من أحكامها؛ لأنها لا تتناسب مع أهوائهم، وحذرت الرسول ﷺ وأتباعه من الاستماع إلى أقوال هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه...

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن جماعة من أحبار اليهود قال بعضهم لبعض: « اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعك غيرنا ولم يخالفك، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم، فنؤمن بك..

فأبى النبي ﷺ أن يستجيب لهم، وأنزل الله -تعالى- هذه الآية.

والمعني: عليك أيها الرسول الكريم أن تحكم بين هؤلاء المتخاصمين بما أنزل الله -تعالى- ولا تلتفت إلى أهواء وأقوال هؤلاء الضالين الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً...

وأحذرهم أن يصرفوك أو يحولوك عن بعض ما أنزلناه إليك ولو كان أقل القليل، بأن

يصورا لك الباطل في صورة الحق، أو بأن يحاولوا استمالتك إلى الحكم الباطل الذي يرضى شهواتهم.

فالمقصود بقوله -تعالى-: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ...﴾ نهيه ﷺ عن الاستماع إلى أقوال هؤلاء الضالين، الذين يحاولون صرفه ﷺ عن الحكم الحق إلى الحكم الباطل.

وفي هذه الجملة الكريمة: تيئيس لأولئك الأحبار وأشباههم، الذين حاولوا إغراء الرسول ﷺ بأن يقضي لهم بما يرضيهم لكي يتبعوه، ونهي له ﷺ ولأتباعه عن الاستجابة لأهوائهم، ولو في أقل القليل مما يتعارض مع الحق الذي أمره الله -تعالى- بالسير عليه في القضاء بين الناس.

ثم بيّن -سبحانه- سوء عاقبة من يعرض عن حكمه عز وجل فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

أي: فإن أعرض عن حكمك أيها الرسول الكريم هؤلاء الذين استحوذ عليهم الشيطان، فاعلم أن حكمة الله قد اقتضت أن يعاقبهم بسبب بعض هذه الذنوب التي اقترفوها والتي من أقبحها إعراضهم عن الحق، وانقيادهم للباطل، وانصرافهم عن الهدى والرشاد إلى الغي والضلال...

واعلم أيها الرسول الكريم أن كثيراً من الناس خارجون عن طاعتنا، فاصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم بحكمه العادل.

وقد تأتي هذه المادة ومشتقاتها بمعنى الابتعاد عن الهدى، والإيقاع في الشرك، بسبب أن المعاقبين بذلك قد استحبوا الكفر على الإيمان، وأطاعوا حزب الشيطان، وأعرضوا عن هداية الرحمن...

ومن الآيات القرآنية التي صرحت بسوء عاقبة من يسلك هذا السلوك الذميم قوله -تعالى-: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (سورة طه الآيات: ٨٣ - ٨٤ - ٨٥).

وهذه الآيات وما بعدها قد تحدثت عن فتنة قوم موسى -عليه السلام- بعد أن ذهب

لمناجاة ربه، فانتهزوا غيابه عنهم، وانقادوا لخديعة السامري لهم، حيث صنع لهم عجلاً وأمرهم بعبادته فأطاعوه، وأخبر الله -تعالى- نبيه موسى -عليه السلام- بما فعله قومه في غيابه، فرجع إليهم غضبان أسفاً فأحرق العجل وألقى بآثاره في البحر.

وقد افتتحت هذه القصة بقوله -تعالى-: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

أي: وقلنا لنبينا موسى -عليه السلام- بعد أن حضر لمناجاتنا: ما الذي جعلك يا موسى تتعجل المجئ إلى هذا المكان قبل قومك...؟

فأجاب موسى -عليه السلام- معتذراً لربه بقوله: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾.

أي: هم على مقربة مني، وسيلحقون بي بعد زمن قليل ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

أي: وقد حملني على أن أحضر قبلهم شوقي إلى مكالمتك يا إلهي وطمعي في زيادة رضاك عني.

فموسى -عليه السلام- قد علل تقدمه على قومه في الحضور بعلتين:

الأولى: أنهم كانوا على مقربة منه.

والثانية: حرصه على استدامة رضى ربه عنه.

وقوله -سبحانه-: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

إخبار منه -سبحانه- لموسى -عليه السلام- بما فعله قومه بعد مفارقته لهم.

ولفظ «فتنا» هنا: المقصود به أضللناهم وجعلناهم بسبب جهلهم وغبائهم يستحبون العمى على الهدى، وينقادون لمن خدعهم انقياد الدابة لصاحبها.

والسامرى: اسم للشخص الذي صنع العجل لبني إسرائيل وأمرهم بعبادته فأطاعوه.

والمعنى: قال الله -تعالى- لنبيه موسى -عليه السلام- فإنا قد أضللنا وأوقعنا قومك من بعد فراقك لهم في الشرك والفسوق والعصيان؛ لأنهم استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله؛ ولأنهم ساروا خلف السامري الذي أمرهم بعبادة عجل من جسد له خوار فانقادوا لأمره انقياد الجاهل الأحمق الغبي الذي فقد عقله، وسفه نفسه...

ثم قصَّت علينا الآيات بعد ذلك أن هارون -عليه السلام- حاول منعهم من عبادة العجل، ولكنهم تطاولوا عليه، وعصوا أمره، واستهزؤا بنصحه...

قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (سورة طه الآية: ٩٠).

والمقصود بقوله -تعالى-: «فتنتم به»

أي: خدعتم ووقعتم في الشرك والخسران والفسوق والعصيان، بسبب عبادتكم لعجل جسد له خوار صنع لكم السامري رأس «الفتنة» والضلال.

والمعنى: والله لقد نصح هارون -عليه السلام- قومه من بني إسرائيل الذين عبدوا العجل، قبل رجوع موسى -عليه السلام- من رحلته لمناجاة ربه، وقال لهم مستعطفا: «يا قوم إنما فتنتم به».

أي: يا قوم إن ضلالكم وكفركم وترديكم في الشرك، إنما هو بسبب عبادتكم العجل، فالضمير في «به» يعود إلى العجل الذي عبدوه من دون الله عن جهل وغباء وانطماس بصيرة.

وقال لهم هارون أيضاً: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

أي: وإن ربكم وخالقكم ومالك أمركم هو الله -تعالى- وحده، وما دام الأمر كذلك فاتبعوني وأطيعوا أمري في الثبات على الحق، وفي نبذ عبادة العجل، وفي المحافظة على ما عاهدكم عليه موسى -عليه السلام-.

قال الإمام الفخر الرازي -رحمه الله- عند تفسيره لهذه الآية: واعلم أن هارون -عليه السلام- قد سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه؛ لأنه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله: «يا قوم إنما فتنتم به» أي: خدعتم ووقعتم في الشرك والخسران بسبب عبادتكم لغير الله -تعالى-.

ثم دعاهم إلى معرفة الله ثانياً بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾.

ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾.

ثم دعاهم رابعاً إلى إتباع شريعة الله بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

وهذا هو الترتيب الجيد؛ لأنه لابد قبل كل شئ من إماطة الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله -تعالى- هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة، فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه، ولكنهم لجهلهم وعنادهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال بالتقليد والجمود قالوا: «لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى».

وقد يأتي لفظ «الفتنة» بمعنى التضرع إلى الله -تعالى- ألا يسلط أعداءنا علينا فيكون لهم النصر علينا، أو أن يجعلنا منحرفين عن الحق والصدق في أقوالنا وأفعالنا، فينصرف غيرنا عن ديننا لأنهم لا يرون فينا القدوة الحسنة، أو السلوك القويم.

ومن الآيات القرآنية التي أشارت إلى ذلك قوله -سبحانه-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة يونس الآيات: ٨٤ - ٨٥ - ٨٦).

أي: وقال موسى -عليه السلام- للمؤمنين الصادقين من قومه بعد أن رأى الظلم يقع عليهم من أعدائهم: قال لهم على سبيل التثبيت لهم على الإيمان: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله -تعالى- حق الإيمان، وأسلمتم وجوهكم له حق الإسلام، فعليه وحده اعتمدوا، وبجنابه وحده تمسكوا، فإن من توكل على الله واتجه إليه، كان الله معه بنصره وتأييده.

ثم قص علينا القرآن أن هؤلاء المؤمنين الصادقين من قوم موسى -عليه السلام- قد ردوا عليه بما يدل على صدقهم في إيمانهم فقال:

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

أي: فقالوا في ردهم على نبيهم موسى -عليه السلام- نحن على الله -تعالى- وحده توكلنا، وفوضنا أمورنا إليه، فنسألك يا ربنا ألا تجعلنا موضع هزيمة وضعف أمام القوم الظالمين، بأن تمكنهم منا، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق، وأننا على الباطل، لأننا لو كنا على الحق في زعمهم لما تمكنوا منا، ولما انتصروا علينا.

ثم أضافوا إلى هذا الدعاء دعاء آخر، أكثر راحة من سابقه في المباعدة بينهم وبين الظالمين، فقالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

أي: نحن يا ربنا لا نلتمس منك ألا تجعلنا فتنة لهم فقط، بل نلتمس منك أيضاً أن تنجينا من شرورهم ومن شرور القوم الكافرين، وأن تجعل كلمتنا هي العليا، وأن تجعل كلمتهم هي السفلي.قال الإمام الشوكاني رحمه الله:« وفي هذا الدعاء الذي تضرعوا به إلى الله -تعالى- دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين، فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم».

وشبيه بهذه الآيات قوله -سبحانه-: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة الممتحنة الآية: ٥).

وهذه الآية الكريمة قد جاءت بعد أن قص الله -تعالى- قول سيدنا إبراهيم -عليه السلام- وقول المؤمنين الصادقين معه، للمشركين من قومهم: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ (سورة الممتحنة الآية: ٤).

ثم جاءت هذه الآية الكريمة لتقص علينا هذا الدعاء الذي توجه به المؤمنون الصادقون إلى خالقهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾

ولفظ «الفتنة» هنا مصدر بمعنى المفتون.

أي: المعذب، مأخوذ من فتن فلان الفضة إذا أذابها.

والمعنى: يا ربنا لا تجعلنا مفتونين معذبين لهؤلاء الكافرين، بأن تسلطهم علينا فيفتتونا بعذاب لا نستطيع صده، ومنعه والتغلب عليه...

ويصح أن يكون المعنى: يا ربنا لا تجعلنا فتنة لأعدائنا وأعدائك الظالمين، بأن تعذبنا بأيديهم، فيظنوا بسبب ذلك أنهم على الحق، وأننا على الباطل، ويزعموا بأننا لو كنا على الحق ما انتصروا علينا.

ولبعض مشايخنا رأي آخر في فهم هذه الآية، وهو أن «الفتنة» هنا المراد بها:

اضطراب حال المسلمين وفساده، وكونهم لا يصلحون أن يكونوا قدوة لغيرهم في وجوه الخير...

فيكون المعنى: يا ربنا لا تجعل أقوالنا وأعمالنا سيئة، فيترتب على ذلك أن ينفر المشركون من ديننا، بحجة أنه لو كان ديناً سليماً، لظهر أثر ذلك على أتباعه، ولكانوا بعيدين عن كل تفرق وتباعد وتأخر.

والخلاصة: أن لفظ «الفتنة» في هذه الآية، وفي قوله -تعالى- في الآيات السابقة من سورة «يونس»: ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين... يحتمل معنيين وجيهين:

الأول: دعاء المؤمنين بألا يجعلهم موضع هزيمة أو ضعف أمام المشركين...

والثاني: أن يبعدهم عن كل قول سئ، وعن كل عمل قبيح، وعن كل فعل يتنافي مع مكارم الأخلاق، لأنهم لو كانوا متنابذين متباغضين متنازعين بعيدين عن الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى، لنفر منهم من ليس على دين الإسلام، ولقالوا: لو كان دينهم ديناً حقاً لما كان حالهم بهذه الحال...

وقد يأتي لفظ «الفتنة» بمعنى الشك والارتياب فيما جاء به النبي ﷺ من عند ربه، بسبب فساد قلوبهم، ونفاق نفوسهم، وجحودهم للحق، واعتناقهم للباطل، وإيثارهم الشرك على إخلاص العبادة لله الواحد القهار.

ومن الآيات التي أكدت هذه الحقيقة قوله -سبحانه-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الحج الآيات: ٥٢ - ٥٣ - ٥٤).

ولفظ «تمنى» هنا، فسره العلماء بتفسيرين:

أولهما: أنه من التمني بمعنى محبة الشئ وشدة الرغبة في الحصول عليه.

والمقصود بإلقاء الشيطان في أمنيته: محاولته صرف الناس عن دعوة الحق عن

طريق إلقاء الأباطيل في نفوسهم، ومحاولة تثبيتهم على الباطل الذي انغمسوا فيه.

والمعنى: وما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول ولا نبي، إلا إذا تمنى هداية قومه إلى الدين الحق، ألقى الشيطان الوساوس والشبهات في طريق أمنيته لكي لا تتحقق، بأن يوهم الشيطان الناس بأن هذا الرسول أو النبي ﷺ ساحر أو مجنون...

قال -تعالى-: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الذاريات الآيات: ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥).

والآية الكريمة على هذا التفسير واضحة المعنى، ويؤيدها الواقع، لأن كل رسول أو نبي أرسله الله -تعالى- إلى الناس كان حريصاً كل الحرص على إخراج قومه من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، وكان يتمنى أن يؤمنوا جميعاً، إلا أن قوم كل رسول أو نبي منهم من آمن به، ومنهم من أعرض عنه بسبب وسوسة الشيطان ونزغاته...

أما التفسير الثاني للفظ «تمنى» فهو بمعنى قرأ وتلا على الناس ما يريد قراءته عليهم.

والمقصود بما يلقيه الشيطان في قراءته وتلاوته، ما يلقيه في تفسير هذه القراءة من شبهات وأكاذيب وأباطيل، ليصد الناس عن إتباع ما يقرؤه الرسول وما يتلوه..

وليس المقصود أنه يُلقي في قراءته أو تلاوته ما ليس منها بالزيادة أو بالنقص، لأن ذلك محال بالنسبة لكتاب الله -تعالى- الذي تكفل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر الآية: ٩).

والمعنى على هذا الوجه: وما أرسلنا من قبلك أيها الرسول الكريم من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ شيئاً مما أوحيناه إليه، ألقى الشيطان في تفسير قراءته الشبه والأباطيل؛ ليمنع الناس من إتباع ما يتلوه عليهم هذا الرسول أو النبي، وليصرفهم عن تصديقه والإيمان به.

قال الإمام الآلوسي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: وهذا كقول المشركين عند

سماع قراءة النبي ﷺ لقوله -تعالى- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ...﴾ (سورة المائدة الآية: ٣). إن محمداً يحل ذبيحة نفسه ويحرم ما ذبحه الله....

والآية الكريمة على هذا التفسير الثاني للفظ «تمنى» واضحة في معناها أيضاً لأن معنى الآية الكريمة: وما أرسلنا من قبلك أيها الرسول الكريم من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ ما أنزله الله -تعالى- عليه، ألقى الشيطان في تفسير قراءته الأباطيل والأكاذيب في عقول الضالين الجاهلين، فيجلهم يؤولونها تأويلاً سقيماً، ويفهمونها فهماً خاطئاً.

وقوله عز وجل: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

بيان لسنته -سبحانه- التي لا تتخلف في إحقاق الحق، وفي إبطال الباطل.

وقوله -تعالى- «فينسخ» من النسخ بمعنى الإزالة.

يقال: نسخت الشمس الظل إذا أزالته.

أي: فيزيل -سبحانه- بمقتضى قدرته وحكمته ما ألقاه الشيطان في القلوب التي شاء الله -تعالى- لها الإيمان والثبات على الحق، ثم يحكم -سبحانه- آياته بأنه يجعلها متقنة لا تقبل الرد، ولا تحتمل الشك في كونها من عنده -تعالى- والله عليم بجميع شئون خلقه، حكيم في كل أقواله وأفعاله وتصرفاته.

ثم بيّن -سبحانه- بعد ذلك أن الحكمة في إلقاء الشيطان لشبهه وإضلاله هي الامتحان والابتلاء فقال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

والمقصود بلفظ «الفتنة» هنا: الشك والارتياب، والكفر والفسوق والعصيان...

أي: فعل ما فعل -سبحانه- ليجعل ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه في القلوب فتنة واختباراً وامتحاناً للذين في قلوبهم مرض أي: شك وارتياب وهم المنافقون، وللذين قست قلوبهم، وهم الكافرون المجاهرون بالجحود والعناد.

ثم بين -سبحانه- سوء عاقبة الفريقين فقال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

وهم من في قلوبهم مرض، ومن قست قلوبهم: ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

أي: لفى خلاف للحق شديد، بسبب نفاقهم وكفرهم.

ثم بيّن -سبحانه- حكمة أخرى لما فعله من إلقاء الشبه والوساوس في القلوب فقال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾.

والضمير في «أنه» يعود إلى ما جاء به الرسل والأنبياء من عند ربهم.

والمعنى: وفعل ما فعل -سبحانه- أيضاً ليعلم العلماء من عباده، الذين «حبب -سبحانه- إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان».

ليعلم هؤلاء الراسخون في العلم أن ما جاء به الرسل والأنبياء هو الحق الثابت من ربك، فيزدادوا إيماناً به﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾.

أي: فتخضع وتسكن وتطمئن إليه قلوبهم..

وإن الله -تعالى- لهادى الذين آمنوا به، وصدقوا أنبياءه ورسله إلى صراط مستقيم يوصلهم إلى السعادة في الدنيا، وإلى الفوز برضا خالقهم عز وجل في الآخرة.

وهذه سنته -سبحانه- التي لا تتخلف ولا تتبدل، وصدق الله إذ يقول: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النحل الآية: ٩٧).

وقد تأتي كلمة «الفتنة» بمعنى الاستدراج لكل منحرف عن الحق، ثم ينزل الله -تعالى- به عقابه في الوقت الذي يشاؤه -سبحانه- ومن الآيات التي أشارت إلى هذا المعنى قوله -سبحانه-: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (سورة الأنبياء الآيات: ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠ - ١١١ - ١١٢).

وقد جاءت هذه الآيات في أعقاب آيات أخرى تحدثت عن مظاهر قدرة الله -تعالى- وعن سننه في خلقه، وعن أن رسالة الرسول كانت رحمة للعالمين...

ثم جاءت هذه الآيات لتأمر النبي ﷺ بأن يعلن للناس أن المستحق للعبادة إنما هو الله -تعالى- وحده...

والاستفهام في قوله -تعالى-: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ للتخصيص.

أي: ما دام الأمر كما ذكرت لكم فاسلموا تسلموا.

ثم أرشد -سبحانه- نبيه محمداً إلى ما يقوله الناس في حال إعراضهم عن دعوته فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ...﴾.

وجملة ﴿آذَنتُكُمْ﴾ من الإيذان بمعنى الإعلام والإخبار. ومنه الآذان للصلاة بمعنى الإخبار بدخول وقتها.

أي: فإن أعرضوا عن دعوتك أيها الرسول الكريم فقل لهؤلاء المعرضين: لقد أعلمتكم وأخبرتكم بما أمرني ربي أن أعلمكم وأخبركم به، ولم أخص أحداً منكم بهذا الإعلام دون غيره، وإنما أخبرتكم جميعاً ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾.

أي: على حالة واحدة لكم جميعاً في العلم، فأنا لم أفرق بينكم في إخباركم أن المستحق للعبادة هو الله.

وقوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

إرشاد منه -سبحانه- لنبيه إلى ما يقوله لهؤلاء المشركين المعرضين عن دعوته.

أي: فإن أعرضوا عن دعوتك أيها الرسول الكريم فقل لهم: لقد أبلغتكم جميعاً بما أمرني بتبليغه لكم، وإني بعد هذا التبليغ والتحذير لا أدري أقريب أم بعيد ما توعدون به من عذاب بسبب إعراضكم عن الحق، لأن علم ذلك إنما هو عند الله -تعالى- وحده.

وإنه عز وجل هو الذي يعلم ما تجهرون به وما تسرونه من أقوال وأعمال، ويعلم أيضاً ما تكتمونه في قلوبكم من شرك وفسوق وعصيان...

وقوله -سبحانه-: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

زيادة في تأكيد أن علم ما سينزل بهم من عقاب مرده إلى الله -تعالى- وحده.

فالمقصود بلفظ «الفتنة» هنا: الامتحان والاختبار عن طريق الاستدراج والتحذير من وقوع العقاب في الوقت الذي يشاؤه الله -تعالى-

والمعنى: وإني أيضاً لا أدري لعل تأخير عقابكم بعد أن أعرضتم عن دعوتي من باب

الاستدراج لكم إلى وقت معين لا يعلمه إلا الله، ثم يعاقبكم -سبحانه- بعد ذلك بالعقوبة العادلة.

وفي إسناد علم ما سينزل بهم من عقاب بسبب شركهم إلى الله -تعالى- وحده، في هذا الإسناد تخويف شديد، وفيه أيضاً أدب ليس بعده أدب من النبي ﷺ مع الله عز وجل

ثم ختمت سورة «الأنبياء» بقوله -سبحانه-: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

أي: قال الرسول ﷺ بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهو يتضرع إلى ربه: يا رب احكم بينى وبين هؤلاء المعرضين عن دعوتك، وأنت يا ربنا الرحمن الرحيم، نلتمس منك العون والنصر على هؤلاء الذين استجابوا للباطل، وتركوا الحق.

وقد تأتي كلمة «الفتنة» بمعنى حسد الناس بعضهم لبعض وتنازعهم وتباغضهم وتقاتلهم...

ومن الآيات القرآنية التي تقرر هذا المعني قوله -تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ (سورة الفرقان الآية: ٢٠).

وقد جاءت هذه الآية الكريمة لتسلية الرسول وللرد على شبهات أعدائه الذين قالوا في شأنه: ﴿قَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ (سورة الفرقان الآية: ٧).

والمعنى: وما أرسلنا قبلك أيها الرسول الكريم أحداً من رسلنا، إلا وحالهم وشأنهم أنهم يأكلون الطعام الذي يأكله الناس، ويمشون في الأسواق لقضاء مصالحهم كما يمشى غيرهم.

ومادام الأمر كذلك فلا تتأثر أيها الرسول الكريم بأقوالهم الزائفة، فهي تدل على جهالاتهم وعلى سوء نياتهم، وعلى انطماس بصائرهم، وعلى حسدهم لك على ما آتاك الله من فضله.

والمقصود «الفتنة» في قوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

أي: وجعلنا بعضكم لبعض موضعاً للتحاسد وللتحاقد وللتعارض وللتخاصم...

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه قوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

أي: إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد -سبحانه- أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس، فالصحيح: فتنة للمريض، والغني: فتنة للفقير.

ومعنى هذا، أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير، فعليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني فعليه ألا يحسده، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق...

والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره، فهم يحسدونه على ما آتاه الله من فضله...

والاستفهام في قوله -سبحانه-: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ للتقرير.

أي: أتصبرون على هذا الابتلاء والاختبار فتنالوا من الله -تعالى- الأجر، أم لا تصبرون فيزداد همكم وغمكم وحزنكم؟!!

ويصح أن يكون الاستفهام هنا بمعنى الأمر.

أي: اصبروا على هذا البلاء، والله -تعالى- بصير بأحوالكم الظاهرة والخفية.

وقد تأتي مادة «الفتنة» ومشتقاتها، بمعنى الإحراق بالنار، كما في قوله -تعالى-: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾(سورة الذاريات الآيات: ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤).

وكلمة «الخراصون» جمع خراص. وأصل الخرص: الظن والتخمين.

والمراد بها هنا: الكذب لأنه ينشأ غالباً عن هذا الخرص.

والمعنى: لُعن وطُرد من رحمة الله هؤلاء الكذابون، الذين قالوا في الرسول ﷺ ما هو منزه عنه، والذين هم في غمرة ساهون.

أي: في جهالة تغمرهم كما يغمر الماء الأرض، فهم ساهون وغافلون عن كل خير.

والمراد: أنهم في جهالة غامرة لقلوبهم، وفي غفلة تامة عما ينفعهم.

وهذا التعبير فيه ما فيه من تصوير ما هم عليه من جهالة وغفلة، حيث يصورهم -سبحانه- وكأن الكذب والجهل قد أحاطا بهم وغمرهم حتى لكأنهم لا يحسون بشئ مما حولهم، ثم بيّن -سبحانه- ما كان عليه هؤلاء الكذابون من سوء أدب فقال: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾

أي: يسألون سؤال استهزاء واستخفاف فيقولون: متى يكون هذا البعث الذي تحدثنا عنه يا محمد ومتى يوم الحساب الذي تهددنا به.

وهنا يأتيهم الجواب الذي يردعهم ويبين لهم سوء مصيرهم فيقول -سبحانه-: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

أي: يقع هذا اليوم الذي تسألون عنه وهو يوم البعث والحساب والجزاء يوم تحرقون بالنار أيها المشركون وتعذبون فيها عذاباً أليماً.

فالمقصود بقوله -سبحانه-: «يفتنون»: يحرقون بالنار التي كانوا في الدنيا ينكرونها ويستهزئون بمن يحدثهم عنها.

ويقال أيضاً لهؤلاء الكذابين وهم يعرضون على النار: ذوقوا العذاب المعد لكم، فهذا هو العذاب الذي كنتم تستعجلون وقوعه في الدنيا، وتستهزئون بمن يحدثكم عنه.

وقد تأتي مشتقات كلمة «الفتنة» بمعنى الجنون وزوال العقل، واضطراب الأمر، كما في قوله -سبحانه-: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة القلم الآيات: ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧).

أي: وحق القلم الذي يكتب به الكاتبون، ويسطر به المسطرون، إنك أيها -الرسول الكريم- لمبرأ مما اتهمك به أعداؤك من الجنون، وكيف تكون مجنونا وقد أنعم الله -تعالى- عليك بالنبوة والحكمة.

فالمقصود بالآيات الكريمة تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المشركين، ودفع تهمهم الباطلة دفعاً يأتي عليها من القواعد فيهدمها، وإثبات أنه رسول من عند الله -تعالى-.

وأقسم -سبحانه- بالقلم لعظيم شرفه، وكثرة منافعه، فبه كتبت الكتب السماوية، والأحاديث النبوية الشريفة، والعلوم المتنوعة النافعة، وبه يحصل التعارف والتعاون بين الناس...

وصدق الله إذ يقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق الآيات: ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥).

ونفى -سبحانه- عنه ﷺ الجنون بأبلغ أسلوب، لأن المشركين كانوا يصفونه بذلك.

قال -تعالى-: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة القلم الآيات: ٥١).

وفي إضافته ﷺ إلى الرب عز وجل مزيد إشعار بالتسلية والقرب والمحبة، ومزيد إشعار أيضاً بنفى ما افتراه الجاهلون من كونه مجنوناً؛ لأن هذه الصفة لا تجتمع في عبد أنعم الله -تعالى- عليه، وقربه، واصطفاه لحمل رسالته وتبليغ دعوته.

ثم بشره -سبحانه- ببشارة ثانية فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

ولفظ «ممنون» مأخوذ من المن بمعنى القطع، تقول: مننت الحبل، إذا قطعته. ويصح أن يكون من المن بمعنى أن يعطى الإنسان غيره عطية ثم يفتخر بها عليه، ومنه قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٦٤).

والمعنى: وإن لك أيها -الرسول الكريم- عندنا لأجرا عظيماً لا يعلم مقداره إلا نحن، وهذا الأجر غير مقطوع بل هو متصف ودائم وغير ممنون.

ثم أثنى -سبحانه- عليه بأجمل ثناء وأطيبه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: وإنك أيها الرسول الكريم لعلى دين عظيم، وعلى خلق كريم، وعلى سلوك قويم، في كل ما تأتيه وما تتركه من أقوال وأفعال.

ثم بشره -سبحانه- بشارات أخرى فقال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾.

والمفتون: اسم مفعول، وهو الذي أصابته فتنة ومصيبة أدت إلى جنونه، والعرب كانوا يقولون للمجنون: فتنته الجن. أو هو الذي اضطرب أمره، واختل تكوينه، وضعف تفكيره، كأولئك المشركين الذين اتهموا الرسول ﷺ بتهم هو برئ منها.

والمعنى: لقد ذكرنا لك أيها الرسول أنك بعيد كل البعد عما اتهمك به أعداؤك، وأن لك عندنا المنزلة السامية، ومادام الأمر كذلك فسترى وستعلم، وسيرى ويعلم هؤلاء المشركون، في أي فريق منكم الإصابة بالجنون؟ أفريق المؤمنين أم بفريق المشركين.

وأعلم أيها -الرسول الكريم- إن ربك عز وجل هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين،ومادام الأمر كذلك: فسر في طريقك المستقيم، وذرهم في طغيانهم يعمهون، وستكون العاقبة لك ولأتباعك.

وقد تأتي مادة «الفتنة» وما اشتق منها بمعنى التخبط والتحسر والنطق بالباطل هلعاً وجزعاً، كما يشير إلى ذلك قوله -سبحانه-: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (سورة الأنعام الآيات: ٢٢ - ٢٣ - ٢٤).

والمعنى: واذكر -أيها الرسول الكريم- لهؤلاء المشركين الذين حاربوا، اذكر لهم -لعلهم يتعظون- يوم نحشرهم ونجمعهم جميعاً يوم الحساب، ثم نقول لهم ونسألهم سؤال إفضاح لا سؤال إيضاح: أين شركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله، والذين كنتم تزعمون في حياتكم الدنيا أنهم سيشفعون لكم يوم القيامة، وتقولون بملء أفواهكم: هؤلاء شفعاؤنا؟

وفائدة كلمة «جميعاً» رفع احتمال التخصيص.

أي: أن جميع المشركين ومعبوداتهم سيحشرون أمام الله -تعالى- للحساب.

وكان العطف بحرف «ثم» لتعدد الوقائع قبل هذا الخطاب الموجه للمشركين، إذ قبل ذلك سيكون قيامهم من قبورهم، وسيكون هول الموقف، وسيكون إحصاء الأعمال، وقراءة كل إنسان لكتابه... ثم يقول الله -تعالى-: ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟.

ووبخهم -سبحانه- بقوله: «أين شركاؤكم» مع أنهم محشورون معهم؛ لأنهم لا نفع يرجى من وجودهم معهم، فلما كانوا كذلك، نزلوا منزلة الغائب،كما تقول لمن جعل إنساناً يعتمد عليه في الشدائد، فلما وقع في شدة لم يلتفت إليه هذا الإنسان، فتقول لهذا الذي اعتمد على ذلك الصديق مع أنه حاضر معه: أين صديقك الذي كنت تعتمد عليه في شدتك، فتجعله لعدم نفعه وإن كان حاضراً بمنزلة الغائب الذي لا فائدة من وجوده أو عدم وجوده.

ثم أخبر - -سبحانه- عما يكون من هؤلاء المشركين يوم القيامة من تخبط وتحسر ونطق بالكلام الباطل فقال -تعالى-: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

أي: ثم لم تكن عاقبة شركهم وفسوقهم عن طاعة رسولهم إلا أن تخبطوا وتحسروا ونطقوا بما هو كذب وباطل، وأكدوا ما نطقوا به بالحلف وقالوا: والله يا ربنا ما كنا في الدنيا مشركين، وإنما كنا مسلمين موحدين...

وهم يقولون ذلك توهماً منهم أن تبرأهم من الشرك في الآخرة، سينجيهم من عذاب الله -تعالى-.

فالمقصود بقوله -سبحانه-: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾.

أي: ثم لم تكن عاقبة شركهم وجحودهم للحق إلا التخبط والتحسر والحلف الكاذب،والنطق بما لا أساس له من الصدق...

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يغفر الله -تعالى- لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك، فتعالوا نقول: إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين !!

فقال الله -تعالى- أما إذ كتموا الشرك، فاختموا على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون.

ثم حث -سبحانه- كل عاقل على الاتعاظ والاعتبار بحال هؤلاء المشركين فقال: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

والمعنى: انظر أيها العاقل وتأمل، كيف كذب هؤلاء المشركون على أنفسهم في قولهم: والله ربنا ما كنا مشركين، وغاب عن عقولهم وأفكارهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من الأقوال الباطلة، وما كانوا يفعلونه من جعلهم لله شركاء.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال: فإن قلت: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور مع أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟

قلت: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً. ألا تراهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (سورة المؤمنون الآية: ١٠٧).

وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (سورة الزخرف الآية: ٧٧).

وقد علموا أنه لا يقضى عليهم؟

هذا، ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن كلمة «الفتنة» وما اشتق منها، قد تكررت في القرآن الكريم في أكثر من خمسين موضعاً، وأن هذه الكلمة لم تأت في القرآن الكريم بمعنى واحد، وإنما وردت كما سبق أن ذكرنا لمعان شتى.

فتارة تستعمل بمعنى الابتلاء والاختبار والامتحان، وهذا الاستعمال له صور متعددة منها قوله -تعالى-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٣٥).

ومنها قوله -سبحانه-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٢٨).

وتارة تأتي بمعنى بلبلة الأفكار، واضطراب الأفهام، ونشر الإشاعات الكاذبة، وإثارة الشبهات التي تؤدى إلى نشر العداوة بين الناس كما في قوله -سبحانه-: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ (سورة آل عمران الآية: ٧).

وكما في قوله -تعالى-: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (سورة التوبة الآية: ٤٧ - ٤٨).

وتارة تأتي كلمة «الفتنة» بمعنى العذاب الدنيوي، كحلول الأمراض والآلام والمصائب التي تصيب الناس، بسبب ما ارتكبوه من سيئات كما في قوله -سبحانه-: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (سورة الأنفال الآية: ٢٥).

وتارة يكون المقصود بكلمة «الفتنة»، وصف جماعة في قوله عزل وجل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (سورة الحج الآية: ١١).

وتارة يكون المقصود بهذه الكلمة، فضيحة المنافقين، وهتك أستارهم، وكشف مساوئهم، وعزلهم عن المؤمنين الصادقين كما في قوله -تعالى-: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة النور الآية: ٦٣).

وتارة يكون المقصود بها: توبيخ جماعة من الناس الذين ضعف إيمانهم، وفسد يقينهم، ولم يفرقوا بين عذاب الله وعذاب الناس... كما في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة العنكبوت الآية: ١٠).

وتارة تأتي كلمة «الفتنة» بمعنى الغرور، ونسبة مابين يدي الإنسان من نعم إلى ذكائه وعلمه... كما في قوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر الآية: ٤٩).

وأحياناً تأتي هذه الكلمة ويراد بها السقوط في الفواحش، والتردي في القبائح كما في قوله -سبحانه-: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (سورة التوبة الآية: ٤٩).

وأحياناً يكون المراد بكلمة «الفتنة»: الردة عن الإسلام، ومحاربة المسلمين...

كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾ (سورة الأحزاب الآية: ١٤).

وتارة تأتي كلمة «الفتنة» بمعنى المخادعة وإيثار الكفر على الإيمان، والباطل على الحق كما في قوله -تعالى-: ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ (سورة النساء الآية: ٩١).

وتارة تأتى هذه الكلمة بمعنى توهم الظالمين والفاسقين، أنهم لن يصيبهم شئ من العقاب بسبب ارتكابهم للمعاصي والآثام كما في قوله عز وجل: ﴿وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾ (سورة المائدة الآية: ٧١).

وقد تأتي هذه الكلمة بمعنى الكفر والخذلان والضلال، كما في قوله -تعالى-: ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا﴾ (سورة المائدة الآية: ٤١).

وتارة تأتي كلمة «الفتنة» ويكون المقصود بها تثبيت المؤمنين، وبيان أن ما فعله الظالمون بهم أشد من قتال المؤمنين لهم كما في قوله -سبحانه-: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ (سورة البقرة الآية: ١٩١).

وكما في قوله -تعالى-: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ (سورة البقرة الآية: ٢١٧).

وقد تأتي هذه الكلمة ويكون المقصود بها تحريض المؤمنين على قتال أعدائهم الذين أصروا على إيذائهم وسفك دمائهم، واغتصاب أموالهم، حتى تطهر الأرض من فسادهم وظلمهم كما في قوله -سبحانه-: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ (سورة البقرة الآية: ١٩٣).

وكما في قوله عز وجل: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ (سورة الأنفال الآية: ٣٩).

وقد تأتي كلمة «الفتنة» بمعنى تضرع المؤمنين إلى خالقهم عز وجل ألا يسلط عليهم أعداءهم فيكون لهؤلاء الغلبة والنصر كما في قوله -سبحانه-: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (سورة الممتحنة الآية: ٥).

وهكذا نرى أن هذه الكلمة قد تكررت عشرات المرات، ولكن لمعاني متنوعة، ولمقاصد متعددة، مما يشهد بإعجاز هذا القرآن، وبأنه من عند الله -تعالى- وبما يدل على أن اللغة العربية التي نزل بها القرآن هي لغة غنية جامعة لكل ما ينفع الناس، وصدق الله -تعالى- إذ يقول: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ (سورة يوسف الآية: ٢).

حديث السنة النبوية عن كلمة «الفتنة»

وإذا كان القرآن الكريم قد استعمل كلمة «الفتنة» ومادتها ومشتقاتها في معان شتى، ودعا أتباعه إلى سلوك الصراط المستقيم في عقائدهم وفي عباداتهم وفي أقوالهم وفي أعمالهم وفي كل لون من ألوان سلوكهم ومعاملاتهم، وحذرهم من غشيان الفتن التي تؤدي إلى ضعفهم وإلى شيوع الفسوق والعصيان فيما بينهم...

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للقرآن الكريم، فإن السنة النبوية المطهرة، قد أكدت ما أمر به القرآن الكريم أتباعه، وفصلت الحديث عن الفتن، فوضحت سنن الله -تعالى- في خلقه، وبينت أنواع الفتن، وحذرت من المشاركة فيها، وأوجبت على المسلم والمسلمة الوقوف إلى جانب الحق، ونبذ الباطل، وبذلك تموت الفتن في مهدها...

لقد تحدث النبي ﷺ عن سنن الله -تعالى- في خلقه، فبين أن الخلاف بين الناس أمر واقع، وأن هذا الخلاف كثيراً ما يؤدي إلى الخصام والنزاع ونشوب القتال فيما بينهم، كما يؤدي أيضاً إلى انتشار الفتن التي بسببها تضطرب الأفكار، ويلتبس الحق بالباطل، وتعم الفوضى وتشتد الحيرة.

لقد أخبر ﷺ أن فتنا ستحدث، ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في هذا المعنى: ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم - أي البعيد عنها خير من القريب منها والقائم فيها خير من الماشي - أي: والقائم بالقرب منها خير من الساعي إليها والماشي فيها خير من الساعي - أي: والماشي إليها بهدوء وحذر خير من المهرول إليها من تَشرَّف لها تَستَشْرِفه - أي: من تطلع إليها وانغمس في غمارها صرعته - فمن وجد فيها ملجأ أو معاذا فليعذ به - أي: فمن وجد من خلال انتشار الفتن ثغرة تبعده عنها، أو وجد مكاناً يعتصم به من شرورها، فليلجأ إليه.

كما أخبرنا ﷺ بأن الفتن أنواع، وأنها تتفاوت في شدتها وفي آثارها...

ففي الحديث الصحيح عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «والله إني لأَعلَمُ الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بينى وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسر إليَّ في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري - أي: فلا أذيعه ولكن رسول الله ﷺ حدثنا في مجلس عن الفتن فعدها وقال: منهن ثلاث لايكدن يذرن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصيف، منها: صغار، ومنها: كبار....»

وفي حديث آخر أنه قال ﷺ: والذي نفسي بيده، لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قَتَل - أي: لا يعرف القاتل سبب قلته لغيره ولا يدري المقتول فيم قُتل!! فقيل يا رسول الله، كيف يكون ذلك؟

قال ﷺ: «الهَرْجُ» - أي: يكون ذلك بسبب كثرة القتل الذي يقع بين الناس ثم قال: القاتل والمقتول في النار-أي: القاتل مأواه النار بسبب قتله لغيره، والمقتول أيضاً مأواه النار لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه

وفي الحديث الشريف: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار».

وقد حذر النبي ﷺ أتباعه من إشاعة الفتن ومن أي قول أو فعل يوصل إليها، أو يساعد على نشرها، وأمر بهجر أسبابها وترك كل ما يؤدي إلى قيامها...

ومن الأحاديث التي وردت في ذلك ما جاء في صحيح مسلم وفي سنن أبي داود، عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة، القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بها - أي: فيلزم رعايتها وليتجنب «الفتنة» وأهلها ومن كان له غنم فليلحق بها، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه - أي: لكي يشتغل بزراعتها».

فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟

فقال ﷺ: «يَعْمَدُ إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينْجُ إن استطاع النجاء».

أي: من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض، عليه أن يغمد سيفه في جرابه وأن يتركه، ثم يفر من «الفتنة» بسرعة دون أن يلوى على أحد.

ثم قال ﷺ: «اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت...».

وفي رواية لأبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «إن السعيد لمن جنب «الفتنة»، إن السعيد لمن جنب الفتنة، إن السعيد لمن جنب الفتنة».

ولقد أمر ﷺ أتباعه في أحاديث متعددة، أن يكونوا دائماً مع أهل الحق الذين يصلحون ولا يفسدون، ويبنون ولا يهدمون، ويعمرون ولا يخربون، ويتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

ومن الأحاديث الكثيرة التي وردت في هذا المعنى ما جاء في الصحيحين عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني.

فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال ﷺ: نعم.

قلت: يا رسول الله، وهل بعد ذلك الشر من خير؟

قال ﷺ: «نعم وفيه دَخَن».

- أي: أن هذا الخير ليس خالصاً بل فيه قليل من الشر

قلت: يا رسول الله، وما دَخَنَه؟

قال ﷺ: «قوم يهدون بغير هَدْي، تعرف منهم وتُنكِر».

قلت: يا رسول الله، وهل بعد ذلك الخير من شر؟

فقال ﷺ: «نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها».

قلت: صفهم لنا يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا».

قلت: يا رسول الله، فما تأمرني إن أدركني ذلك؟

فقال ﷺ: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم».

فقلت: يا رسول الله، فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟

فقال ﷺ: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».

كذلك من الأحاديث النبوية الشريفة التي أمرت المسلم أن يكون مع أهل الحق، ما جاء في سنن أبي داود عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من فارق الجماعة قيد شبر - أي: قدر شبر - فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه».

-أي: فقد خلع أحكام شريعة الإسلام عن نفسه -.

وجاء في صحيح مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات، مات ميتة جاهلية، ومن قتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب للعصبية، ويقاتل للعصبية، فليس من أمتى، ومن خرج من أمتى على أمتي، يضرب برَّها وفاجرها، لا يتحاشي من مؤمنها، ولا يفي بذي عهدها، فليس مني .

ومعنى قوله ﷺ «ومن قتل تحت راية عُمِّيَّة...».

- أي: من قتل تحت راية الجماعة لا تعرف الحق، بل تقاتل للعصبية العمياء، وللعنصرية البلهاء، ولو كانت على باطل فمات، فليس من الأمة الإسلامية-.

وفي حديث آخر رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عرفجة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستكون هنات وهنات أي: شرور وشرور فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان».

وفي رواية أنه ﷺ قال: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه».

وخطب سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فكان مما قاله: أيها الناس إنى قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال ﷺ: «أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم،

ثم يفشو الكذب حتى يَحلِف الرجل ولا يُستَحلفُ، ويشهد الشاهد ولا يُستَشهَدُ، وعليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد هو من الاثنين أبعد -أي: فإن وسوسة الشيطان للفرد الواحد أشد من وسوسته للاثنين -ومن أراد بُحبُوحَة الجنة أي: وسطها فليلزم الجماعة».

هذه بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي حذرت من إشاعة الفتن،ومن أي قول أو فعل يوصل إليها، ويساعد على نشرها...

وذلك لأن الفتن التي تؤدي إلى الخلاف في الدين، والتفرق في فهمه، وتجعل الأمة شيعاً متناحرة متلاعنة متقاتلة، عاقبته التعاسة في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة آل عمران الآية: ١٠٥).

إن الناس إن لم يجمعهم الحق، مزقهم الباطل، وإذا لم توحدهم عبادة الرحمن، أفسدتهم وسوسة الشيطان.

وفي الحديث الشريف: لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض .

إن الشقاق يضعف الأمم القوية، ويميت الأمم الضعيفة، أما التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، فعاقبته السعادة في الدنيا، والنعيم في الآخرة.

ما هو موقف المسلم من الفتن؟

وموقف المسلم من الفتن قد حددته شريعة الإسلام تحديداً واضحاً حكيماً...

لأنه إذا حدث التنازع بين طائفتين، وهذا التنازع أدى إلى فتنة تبلبلت فيها الأفكار، واضطربت المفاهيم، والتبس فيها الحق بالباطل، ولم يستطع المسلم أن يعرف أي الطائفتين على حق، وأيهما على باطل...

ففي هذه الحالة عليه أن يتجنب الخوض فيها، ما دام غير قادر على الإصلاح بينهما، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ولعل هذه الحالة هي التي قال في شأنها الرسول ﷺ: «إن السعيد لمن تجنَّب «الفتنة»، إن السعيد لمن جُنِّبَ «الفتنة»، إن السعيد لمن جُنِّبَ «الفتنة» قالها ﷺ ثلاث مرات.

وفي حديث آخر عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في «الفتنة» التي هذا حالها: «كسِّروا فيها قسيكم، وقطعوا فيها أوتاركم، والزموا فيها أجواف بيوتكم...».

أما إذا حدث النزاع بين طائفتين أو طوائف من الناس، وأدى هذا النزاع إلى فتنة في الأرض وفساد كبير، وتبين للمسلم وتثبت من أن الحق مع جانب دون جانب...

ففي هذه الحالة تفرض شريعة الإسلام على المسلم أن ينضم بكل شجاعة وثبات وقوة إلى من هم على الحق، وأن يدافع عنهم بكل الوسائل التي شرعها الله -تعالى- للدفاع عن الدين وعن النفس، وعن المال، وعن كل ما يجب الدفاع عنه.

ونحن نقرأ القرآن الكريم، فنرى كثيراً من الآيات القرآنية تقص علينا أخبار رجال عندما انتشرت الفتن ناصروا الحق، ودافعوا عن أهله، وضحوا من أجل ذلك بكل ما يملكون، فرضي الله عنهم ورضوا عنه.

فهذا مؤمن آل فرعون، يقص علينا القرآن الكريم فيما يقرب من عشرين آية من سورة «غافر» كيف أنه عندما رأى فرعون سادراً في كفره وفي ظلمه وفي غروره، ويقول لقومه كما قص علينا القرآن يقول لهم بكل سفاهة واستخفاف: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (سورة غافر الآية: ٢٦).

أي: اتركوني أقتل موسى -عليه السلام- وليطلب هو من ربه ما شاء، فأنا مصمم على قتله، لأني أخاف عليكم أن يفسد دينكم الذي ورثتموه عن آبائكم، كما أخاف أن ينشر في أرض مصر الفساد!!

وخلال هذه الفتن المظلمة لتي يريد فرعون أن ينفذها بكل غرور، يقص علينا القرآن أن رجلاً مؤمناً من حاشية فرعون كان يكتم إيمانه...

نرى هذا الرجل المؤمن من حاشية فرعون، يصرخ في وجه فرعون بكل شجاعة

وقوة، ويصرخ في وجوه قومه بكل ثبات وإقدام، فيقول للجميع كما قص علينا القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (سورة غافر الآية: ٢٨).

أي: يقول هذا الرجل المؤمن لفرعون وقومه: أتقتلون نبي الله موسى الذي يقول ربي الذي لا إله سواه هو الله -تعالى- وحده، وإن موسى -عليه السلام- قد جاءكم بالمعجزات التي تثبت صدقه، ومع كل هذا فإنه إن يك كاذباً على سبيل الفرض فليتحمل وحده نتائج كذبه، وإن يك صادقاً فإن ما أنذركم به من عقاب بسبب إصراركم على الكفر سيحصل لكم، واعلموا أن الله -تعالى- لا يهدي إلى الحق والصواب، من كان مصراً على إسرافه وعلى كذبه.

ثم يقول لهم ثانيا: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ (سورة غافر الآية: ٢٩).

أي: وقال لهم أيضاً يا أهلي ويا عشيرتي انتم اليوم لكم الملك والنصر على غيركم، فحافظوا على هذه النعم بإقامة العدل وبشكر الله على نعمه، لأنكم إذا سرتم في طريق الظلم والضلال، فسينزل الله -تعالى- بكم عذابه الذي لن يمنعه مانع، لأن قدرة الله تعالي لا يعجزها شيء.

ثم يقول لهم ثالثا: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ (سورة غافر الآية: ٣٠).

أي: إنى أخاف عليكم يا أهلي ويا عشيرتي أن يصيبكم من العذاب ما أصاب الأمم الماضية، إذا ما مددتم أيديكم بالسوء أو بالقتل لنبي الله موسى -عليه السلام-

ثم يقول لهم رابعاً: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (سورة غافر الآية: ٣٢).

أي: أخاف عليكم من عذاب يوم القيامة الذي يكثر فيه نداء أهل الجنة لأهل النار، ونداء أهل النار لأهل الجنة...

ثم يقول لهم للمرة الخامسة: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (سورة غافر الآية: ٣٨).

أي: وقال لهم أيضاًويا قوم أطيعوا أمرى، فآمنوا بموسى -عليه السلام- فإنكم متى فعلتم ذلك وصلتم إلى طريق الرشاد والفلاح.

ثم يقول لهم للمرة السادسة: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (سورة غافر الآية: ٣٩).

أي: يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع زائل مهما طالت أيامه،وإن الدار الآخرة وحدها، هي الدار التي فيها البقاء والدوام والاستقرار. ثم يختتم نصائحه لقومه بأن يقول لهم للمرة السابعة: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (سورة غافر الآيات: ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤).

فماذا كانت نتائج هذه النصائح الحكيمة من الرجل المؤمن لفرعون وقومه؟

كانت النتيجة أن نجاه الله -تعالى- من بطش فرعون وجنده، وأن نزل بفرعون وأتباعه العذاب الأليم.

قال -تعالى-: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (سورة غافر الآيات: ٤٥ - ٤٦).

أي: فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل، وجهره بكلمة الحق، ونصحه لقومه، أن وقاه الله -تعالى- ما أراده الظالمون به من أذى وعدوان ومن مكر سيئ، ونزل وأحاط بفرعون وقومه «سوء العذاب» بأن أغرقهم -سبحانه- في البحر، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

ثم بيّن -سبحانه- سوء مصيرهم بعد موتهم وعند قيام الساعة فقال: « النار يعرضون عليها» وهم في قبورهم في أول النهار وفي آخره «ويوم تقوم الساعة» يقال لملائكة العذاب: أدخلوا فرعون وجنده جهنم، وبئس العذاب عذابهم بسبب إصرارهم على شركهم وظلمهم وغرورهم.

وهكذا نرى أن هذا الرجل المؤمن الشجاع الذي كان يكتم إيمانه عن فرعون وجنده،

استطاع أن يدافع عن الحق بكل ما أوتى من قوة، واستطاع بسبب إيمانه وشجاعته وثباته وحكمته أن يخمد «الفتنة» التي كان فرعون ينوي من ورائها قتل موسى -عليه السلام-.

وشبيه بقصة مؤمن آل فرعون، قصة الرسل الذين أرسلهم الله -تعالى- إلى أهل قرية، لإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان بوحدانية الله عز وجل .

ولكن أهل القرية ردوا رداً سيئاً على هؤلاء الرسل، وقالوا لهم كما قص القرآن عنهم: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ (سورة يس الآية: ١٥).

وقالوا لهم أيضاً: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة يس الآية ١٨).

أي: وقال أهل القرية للرسل الكرام الذين أرسلهم الله -تعالى- لهدايتهم إلى الصراط المستقيم: يا من تزعمون أنكم رسل من عند الله، ما أنتم إلا بشر مثلنا ولستم رسلاً، وما أنزل الرحمن من شيء يدل على صدقكم، وما أنتم إلا كاذبون في دعواكم أنكم رسل، وإذا لم تكفوا عن زعمكم بأنكم رسل لنرجمنكم بالحجارة، وليصيبنكم منا عذاب أليم.

وخلال هذه الفتن الهوجاء، ومحاولة أهل القرية البطش برسل الله -تعالى- برز رجل شجاع حكيم، امتلأ قلبه بالإيمان، وبالدفاع عن الرسل الكرام وقال لقومه الظالمين: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ﴾ (سورة يس الآيات: ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣).

وكانت عاقبة هذا الرجل الشجاع المدافع عن الحق، أن رضي الله عنه،وأن أهلك أعداءه: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (سورة يس الآيات: ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩).

ومن الرجال الذين وفقهم الله -تعالى- لنصرة الحق، ولإماتة الفتن في مهدها: سيدنا أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- لأنه بعد أن لحق النبي ﷺ بربه، وبعد أن تولى الخلافة من بعده أبو بكر الصديق، حاول الذين في قلوبهم مرض، أن يفرقوا بين الصلاة وبين الزكاة، وقالوا: نؤدي الصلاة ولا نؤدي الزكاة، وأثاروا بقولهم هذا: الفتن والشبهات الكاذبة، والأقوال الفاسدة، والأفعال القبيحة...

ولكن أبا بكر الصديق رضي الله عنه استطاع بقوة إيمانه، وبثبات يقينه، وبصلابته في إحقاق الحق وفي إبطال الباطل، وبقوة حجته، ويسمو حكمته، وبرباطة جأشه...

استطاع هو ومن معه من المؤمنين الصادقين، أن يقتلوا «الفتنة»، وأن يثبتوا أركان الدين، وأن يجعلوا كلمة الله هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى، وأن يردوهم أعقابهم خاسرين.

والحق أن الذي يتدبر أحوال هذه الدنيا وأحوال أهلها في كل زمان ومكان، يرى أنه لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجود الفتن التي بعضها صغير، وبعضها كبير، بعضها بسيط وبعضها مركب، بعضها حقير وبعضها شره مستطير...

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ (سورة الفرقان الآية: ٢٠).

وأشد أنواع الفتن بين المسلمين، هي تلك التي تمزق شملهم، وتفرق جمعهم، وتجعلهم شيعاً وأحزاباً، ويذيق بعضهم بأس بعض، بسبب عدم فهمهم لأحكام دينهم، ولتوجيهات قرآنهم ولوصايا نبيهم ﷺ.

وإننا لنتضرع إلى الله -تعالى- أن يجنبنا جميعاً الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يديم علينا جميعاً نعمة الأمان والسلام والرخاء والاطمئنان، إنه -سبحانه- على ما يشاء قدير نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.